
شبح
أنطون
تشيخوف
قصص قصيرة
مدونة ابو عبدو
محمد عبد النبي

شبح أنطون تشيخوف

قصص

محمد عبد النبي

إهداء

إلى

أصدقائي.

أصدقاؤنا الشهور

يناير

من بين أكوام الرمل والزلط لاح معطفك الرمادي الشهير. ألم تكن القطيعة نهائية و تامة؟ فلماذا تعود الآن إلينا؟ صحا الميت، على نفخة الصور الثانية على الفور، كمن يصحو في غرفة نومه الخاصة على ضجيج ساعته المنبهة. لملمت عظامك وارتديت لحمك ولحقت بساعة الحشر. لم نصدق أعيننا، لكن الحارس العجوز أكد لنا أنه يراك كما نراك، وهمّ بوضع براد الشاي على النار. واصلنا نحن التحديق في النار، متجاهلين اقترابك. تعرف أن هذه عادتنا الأثيرة حين تعلو الدماغ ويصير لها أجنحة. ونعرف نحن أن التحديق في النار أمتع من الذهاب إلى السينما ومن قراءة الروايات، لأننا نختلق بأنفسنا الصور التي نشاهدها، ونرتجل لحظة بلحظة النص الذي نقرؤه. بالطبع كان النص المرتجل، شأنه شأن مشاهد الفيلم المتخيل، يتبدد ما أن يظهر، وهذا نفسه سر روعة هذه العادة. لماذا تعود وقد سببتنا وهجرتنا قبل شهور؟ فكيف نغفر لك الإهانة، ونحن على يقين من أنك ستتكررها، بعد ساعات أو أيام أو أسابيع؟ ما هي إلا مسألة وقت ويعود إليك خوفك منا، هذا إذا كان قد غادرك أساساً، يعود خوفك إليك لا كما تعود إلينا الآن متوجساً و متعثراً

في خجلـك و متلعثماً بالاعتـذار، بـل يعـود خوفـك إليـك عفيـاً، مكتمـل النمـو، متلهفاً على الحياة.

هاأنت تبتسم ابتسامة عانس غطت البثور وجهها، تحتك بمراهق في أتوبيس نقل عام، ليس شديد الازدحام مع هذا. لم تستجب لنافخ الصور إذن، بل خرجت من شرنقتك تحت إلحاح وسوسة شيطانية استمرت مقاومتك لها ما يقرب من العام. نحن مازلنا هنا كما كنا على الدوام، نحدق في النار. قالت لك الوسوسة: قم، ابحث عن العيال، اذهب إلى المبنى الحكومي الخرب، فهم يسهرون هناك طوال الليل مع الحـارس الصـعيدي الـذي يقـاسمهم خبـز يـومهم مـن المخـدرات. قـم، فـتش عـن الصعاليك، كلاب الشوارع، لكي تتسلى وتوسع من فضاء روحك، على حسابهم. قم، العق من تجاربهم المجنونة ما يضخ الدماء في شحوب أيامك ولياليك. دعهم هم يخاطرون بالجسم والروح، واستمتع أنت بمشاهدة طيبة. ابق آمناً مطمئناً.

اسمـع؛ في لقائنـا الأخـير قلـت كلامـاً جارحـا جـداً، سـنحاول أن ننسـاه و ستساعدنا النار على ذلك. أسميتنا الملاعين مدعي التمرد والثقافة، وقلت إننا حفنة لصوص مدمنون وألمحت إلى اختفاء أشياء ثمينة من منزلك. اسمع؛ لا تقاطعنا، هكذا قلت، وهذا الرجل الطيب كان حاضراً و يشهد و النار تشهد. طبعاً لنا حق عليك. لقد كنا نجلب لك الحشيش حتى غرفة نومك و أنت مسترخٍ مثل الباشا تقرأ عن معنى الموت والوجود. اعترفت بنفسك أننا نجحنا في رفعك لحالة أقرب إلى النيرفانا حين جربت معنا دواء التوسيفان بعد المخدرات. ومع هذا لم تسمح لنا باصطحاب امـرأة لمنزلـك. لم يقـل أحـد منـا أنـك مخصـي، ولكـن هـذا مـا دافعـت أنـت ضـده باستماتة. أمرك غريب، غريب حقاً.

اسمـع؛ لقـد خططنـا للانتقـام منـك عشـرات المـرات، و لم تهـن علينـا. لأنـك بصـراحة لحمـك طري و تصـعب علـى الكـافر. فكرنـا أن نحرق مكتبتـك الضـخمة، الأعز عليك من نور عينيـك اللتين تقرأ بهمـا الموسـوعات في ليـالي الشـتاء، عينيـك اللتين لم تجرؤا على التحديق في النار معنا ولو مرة واحدة. تتعالى علينا بلا داع. لديك رهاب من النسـاء، ماشـي، ومـن جيرانـك، ربمـا، ومـن الشـباب صـغار السـن،

نفهم هذا، ومن الناس جميعاً؛ كيف تعيش أنت أصلاً؟ فكرنا أيضاً أن نلتقط لك صوراً فاضحة، بعد أن نعريك تماماً، ونعمل مجموعة بديعة نوزعها على الجيران والأصدقاء. فكرنا، نقول فكرنا، لأننا لم نتحرك من مكاننا هذا تقريباً منذ أن هجرتنا وأهنتنا. نحن نتأمل النار ونفكر، لكن – كيف – أنت – في هذا كله؟

وحتى قبل أن تهجرنا فنحن نعرف رأيك فينا، نعرف ونسكت. لقد قرأنا يومياتك كلها ذات ليلة. هل تخافنا إلى هذا الحد؟ لماذا تصر على معرفتنا إذن؟ هل كنت حقاً تخاف أن نغتصبك ذات ليلة أم تتمنى هذا و لا تدري كيف تصرح به لنفسك؟ نحن لا نؤذي أحداً، الواحد يؤذي نفسه بيديه ، لكن لنا عليك ألف حق، و اسأل هذا الرجل الطيب الذي يعاملنا مثل أولاده، أو اسأل النار تقول لك إننا لم نتخذ ضدك أي قرارات، حتى الآن على الأقل.

فبراير

فبراير

لم يلاحظ غيابه أحد منا. لكأنه أكثر رقة من أن يُرى بالعين المجردة. أتدرون من هو؟ أقلنا كلاماً وأصفانا ضحكة. كما أننا لا ننتبه لوجوده حتى ولو أمضينا معه ليلة كاملة، بالضبط كما نغفل نعمة أنفاس الهواء التي نتنسمها بلا تفكير.

هو أيضاً، لعلكم تذكرون، الأذن التي خلقت للإنصات، واليد التي لا تحتاج للتظاهر بالحنان. ألم نشرب جميعاً من نبع الأخوة المخيف في صدره يا جماعة؟ وكم من مرة واسانا بسحر عباراته: (هون عليك، كل آت قريب، عهدي بك أقوى من ذلك...) وكل هذا اللغو الرخيص الجميل.

وننساه بجرة قلم مع نهاية كل أزمة. أخوكم اختفى، وما من أحد منكم سأل عنه. نسيناه، نعم، لكي ننسى الضعف الأصيل الذي كشفناه له على انفراد ذات سهرة. تقول زوجته إنه خرج لشراء سجائر وأدوات مكتبية للأولاد، ولم يعد. سألت عنه حجارة الطريق دون جدوى. وأمه مسها الجنون وخرجت تنادي عليه في الشوارع. أنتم تعرفونه جيداً، لا أعداء له و لا عشيقة أو حياة سرية، و كان راضياً عن عيشته كأنه ولي صالح، فالانتحار أمر مستبعد تماما.

من الصعب عليكم تذكره بلا شك، فهو لم يقترض من أحدكم مبلغاً وأكله عليه. لم يصدع رؤوسنا بمعجزاته الخارقة على فراش الزوجية. لم يصر على اصطحاب أياً منا و هو يحشو ضرسه أو يشتري معطفاً أو يحجز للمصيف، كما أننا لم نقطع ورائه مئات الكيلومترات لنحضر دفن أبيه، فقد واسى نفسه بنفسه كعادته، وعرفنا بالأمر بعد عودته من البلد بأيام.

لا، ليس في البلد، ولا عند أحد من الأقارب. وبحثوا في المستشفيات وأقسام الشرطة بالطبع، و لم تظهر حتى جثة لتشفي الغليل. صاحبكم تبخر، وتصرون على إكمال سهرتكم بدونه؛ بدون شخص واحد يستمتع بالإنصات بقدر ما يستمتع الآخرون بالكلام، شخص لا يتعصب لرأيه في الموسيقى أو كرة القدم، ولا يغش في اللعب. واحد فقط بيننا كان يبتسم لعامل المقهى وهو يطلب، ويشكره حتى لو تأخر في تلبية طلبه، ويمنحه إكرامية صغيرة وهو يحاسب على مشاريبه قبل أن يذهب

مبكراً، و مبكراً كان يذهب على الدوام، فالجماعة لا يتذوقون عشاءً قبل عودته، و نحن! نحن نضحك ساخرين من هذا الارتباط الطفولي بالجماعة، ثم ننساه و نكمل سهرتنا بدونه كالعادة.

مارس

في هذا البار النحيل الذي لا يكاد يظهر وسط متاجر كثيرة وضخمة، يُلفت الأنظار إليه، من وقت إلى آخر، شاب ناعم الملامح؛ لو رآه كفافيس لانعقد لسانه ولما كتب سطراً واحداً يشي بطلعته البهية.

لكنني رأيته عندما يبتسم، ويغني: " سألتك حبيبي لوين رايحين "، رأيته عندما تضحك عليه الخمر، فيفتح أزرار القميص الكحلي المفضل لديه، ويختنق صوته بالدموع متسائلا كيف لواحد مثله ينحدر عن أسلاف غلاظ شداد أن يولد رقيقاً وأليفا إلى هذا الحد؟

ليس غلاماً في قصور السلطان هو، حتى يراود الجواري عن نهودهن، ولا يمكنه لمس نهودهن، وإذا لمسها لا يمكنه اعتصارها، وإذا اعتصرها لا تتفجر الحلمات بين أصابعه بأسرار الحريم.

يتوقف فجأة عن تداعياته الشعرية، يصمت تماما لبرهة، ثم يمسح على عينيه اللوزيتين ويقول دون أن ينظر إليّ: "كله من أمي يا محمد، كله منها. لا أعرف لماذا أعطاني الله أماً قادرة وشرانية وأجمل من اللازم مثل هذه؟ فلا أنا أستطيع قتلها ولا أستطيع عبادتها من دون الله!"

فأستغفر الله وآكل ترمس، وأهون عليه بكلام معاد.

ثم يدمدم بغضب، و بكلمات سريعة متتابعة:

"تفتش جيوبي كل يوم، بحثاً عن أدلة تدينني، أدلة على جرائم لم أفكر حتى في ارتكابها. تطالبني بتقديم كشف حساب تفصيلي بمصاريفي حتى الآن. وتوقظني في عز الليل، لشراء معسل وإشعال فحم جوزتها. تشكك في رجولة كل من أصادقهم – لا مؤاخذة يا محمد– وتسميهم المقاطيع. قلبها حجر، وعشاقها كثيرون، كلهم أرباب سوابق أو بلطجية. وأنا –كما ترى – بلا حيلة!"

أقـول كاتماً الضـحك: "أمـك سـيدة عظيمـة، و أنـت ابـن أمـك، فلتفخـر بذلك."

يضرب بوزاً، نافخا دخان سيجارته في وجهي مباشرة:

"أنت أيضاً تسخر مني؟ معك حق. اسخر مني كما تحب، اسخر! اسخر! لا أتوقـع أن يفهمـني أحـد هنـا و لا في أي مكـان آخـر. أنـا فعـلا مسـخرة، لا أسـتحق احترام أحد."

و يبكي، فأهون عليه بأي كلام. ومن بين نشيجه:

"أنا واحد فاشل، طالب فاشل، و شاعر فاشل. فشلت في العمل كما يعمل الرجـال، و في الحـب كمـا يحـب الرجـال. فشـلت، فشـلت، فشـلت في المطـبخ و في الحمام و البلكونة."

وبعد وقت:

"لكنني على الأقل ناجح جداً في الشرب." ثم يسكب ما تبقى في جوفه، من الزجاجـة مباشـرة، فيتجعـد وجهـه و يـتقلص فمـه، لكنـه لا يبصـق قطـرة واحـدة، و يزدرد السائل المحرق، ليؤكد نجاحه الوحيد.

في الوقـت المناسـب ننهض، يستند كـل منـا إلى صـاحبه في طريـق العـودة، و أتركه قبل البيت بقليل، لكي لا تلمحني أمه.

أبريل

؛

لعل الفيلم كان أقرب إلى الرعب منه إلى الكوميديا. الحق أننا لم نتبين ذلك بوضوح من الأفيش أو الصور في مدخل السينما. تظلم الصالة إذن، لتضيء شاشة العرض. ويلفنا الصوت المجسم للراوي العليم: في قرية نائية، مازال لها اسمها المصري القديم و لو بتحريف هين، ينام قلم رصاص أصفر مقصوف و معضعض، في فناء مدرسة ابتدائية. تخلى عنه أحد التلاميذ، فاحتضن الرمال، وراح يتعلم الاحتضار على مهله. لكن البرق يضربه ذات ليلة ليتحول إلى هذا المسخ؛ صاحبكم.

إنه يشبه رغبة في التثاؤب لم تتم. فتحة فم، مجرد فتحة فم دون أن يعقبها تثاؤب حقيقي. عذاب خفيف، لا يكاد يُحس.

وفي هيئته الجديدة، يقسم هذا القلم الإنسان أن ينتقم من تاريخه المهين، بل وأن يعيد كتابة التاريخ كله بسنه الذي جعله البرق ماضياً كحد السيف. سينتقم من كل من جعلوه ينتظر على أبوابهم لساعات، ثم يعتذرون عن عدم مقابلته في النهاية. وكل من نشرت لهم صورة ذات مرة على الصفحات التي تتخاطفها الأيدي، قبل أن تدوسها الأقدام.

وتأخذنا الأحداث، وتهمل أيادي البنات اللاتي يظهرن الآن غريبات و كأننا لم نتعرف بهن إلا قبل قليل، أمام دار السينما. المسخ بالغ النحافة يبدو و كأنه سينكسر إن مسه ضوء النهار، لكنه أصلب من أن يقضي عليه ألف برق و رعد، يضحك ضحكته الصفراء و يملأ وجهه الشاشة إذ يقول: "أعرف أنكم ترونني دودة حقيرة، تلتهم ذاتها، و ينهشها الجوع إلى ما لا تعرف. لكنني في الحقيقة خرافة، لا أقول كذبة. أنا غير موجود أصلاً."

وفي الصباح يعود بكل همة للعمل، يدبج تعليقات عن عروض مسرحية لم يهز طوله ليمر من أمامها سريعاً، ويخترع حوارات صحافية تدغدغ جلود المشاهير مع علمهم أنها ملفقة مئة في المئة، ويعيد تدوير تغطية المؤتمر الواحد بحيث يصلح لجرائد اليمين و اليسار و الشمال و الجنوب. ثم يلقي محاضراته الساخنة في مراكز حقوق الإنسان، حول حقوق الأقليات من أقلام الرصاص الصفراء الضعيفة الضائعة.

ونلتهم نحن السجائر خلال الاستراحة، ونتساءل بغيظ أصيل كيف يمكن لقلم ضربه البرق أن يصبح سيد العارفين و قِبلة الزائرين؟

يرتفع به الكرسي لأعلى عليين: كأنه قضيباً نحيلاً يخترق قشرة الأرض ويصعد، أصفر ممصوصا وعلى فمه أثر دماء، يصعد.

يضحك، ويملأ وجهه الصفحات الأولى كلها: أنا سيد هذا العالم، من التقى بي وظن أنه عرفني على حقيقتي فقد ابتلع الطعم وانتهى أمره.

ونخرج من السينما دون أن نخرج من الفقاعة التي خلقها وجوده حولنا. الفقاعة الصفراء التي تحسبها هشة، و هي أصلب من أن يجرحها الواحد بكل أصابعه خلال عمر كامل. تشير البنات بحدس مازال أعذر إلى افتقاده للحب، و الدليل نظرة عينيه الجائعتين. لا نخيب أملهن، ولا نعترف بتفاهة البديهيات التي يرددنها. و نتساءل، نحن الذكور، لماذا – على كثرة معجزاته – لا يسعه تجاهل الصرخة الكبيرة التي تشق سبيلها من داخل تلافيف أحشائه لتصعد، ولا يصرخ أو يتثاءب حتى، فتمتص الصرخة الكبيرة حليب الإنسانية من وجهه وعينيه وأطرافه. مؤكد يفتقد الحب! طبعاً! و نحاول الاتفاق معهن على الأقل حول النداء الذي يسمعه في أحلامه، ذلك النداء الذي يمضي عكس اتجاه الصرخة، هي تتقدم و هو يتراجع، النداء يشده للوراء، فيما تحاول الصرخة تعرية مستقبله و إلقاءه في دوامة من العته. و الوراء هنا ليس الماضي، ليس نقطة في الزمن، بل لعله مكان: فناء مدرسة ابتدائية مثلاً، حيث عرف طعم النوم الطيب، النوم الذي يشارف حدود الموت، الموت الذي لا يعرف حتى لغة الحلم، قلم رصاص لم يكتب إلا بعض الحروف الأبجدية في مستطيلات شبه منتظمة على طول الصفحة في كراسة واجب اللغة العربية.

مايو

يـا الله! مـن كـان يتصـور شـيئا كهـذا؟ مهـا؟ مهـا؟ هـذه هـي لعبـة التحـولات و المصـائر. ومـن النقيـض إلى النقيـض. اسـتمتعوا يـا شـباب بدهشـتكم قـدر اسـتطاعتكم، فبعـد حـين سـتفقدون القـدرة عليهـا. هـل أنـتم واثقـون ممـا سمعـتم؟ مهـا وضـعت الخمـار والنقاب حقا، وأدارت ظهرها للفن و الحياة؟ زارتها بعض الصديقات من مدة قصيرة، و تأكدن. بل إنها دعتهن لما ألزمت به نفسها. لو وافقن لصار موقف البعض منا عسيرا، غير المتزوجين على الأقل. لكن هل يتغير الناس هكذا في طرفة عين؟ لا شيء يحدث في طرفة عين، لكل شيء جذور ولكننا نغفل عن العلامات في حينها. صحيح، فلم أنس بعـد كلامهـا عـن الأحـلام العجيبـة والشـفافية وروح الوجـود. ومـا علاقـة أوهامهـا تلـك بالسجن المؤبد؟ و كأنك واثق من أنها أوهام ، ثم أن مها لا سجنت و لا شنقت و لا نفت نفسها اختياريا، لقد استبدلت بحياتها حياة أخرى، صادف أنها ليست على هوانا، وهذا بالتحديد هو سر استيائنا وذهولنا. ربنا يهدينا كما هداها. باب الهداية مفتوح أمامك على مصراعيه، فادخل بقدمك اليمنى. كل شيء بأوان. صارت أشباح الماضي تترصد حتى بالفنانين، أتقى عشاق للحياة والمباهج. يا جماعة المسألة مسألة وعي، الوعي ثم الوعي، ومها لم تبذل أي جهد لتبحث وتطلع، كانت مجرد بنت صوتها جميل. بل أكثر من جميل. لم أنس بعد أحلامها العجيبة التي كانت تسردها علي كلما التقيت بها هنا أو هناك، قالت إنها رأت السيدة العذراء تقترب من فراشها وتطبع على جبينها قبلة. لعل البنية كانت تشتاق للعذرية والنقاء. ربما يضطر المرء للرجوع عن مشوار حياته كله، لكن هذا يتطلب شجاعة نادرة. صار من العسير على امرأة أن تجمع حاليا بين حريتها ونقائها، فهي إما شبح تابع بلا هوية أو تعتبر ساقطة. النقاء، النقاء، وكأننا صرنا فجأة كوم زبالة. لو أنها وجدت الحب لكفاها. لقد دامت علاقتها بإسماعيل ثلاث سنوات، لكنه كفر سيئاتها وابتزها، لم تر معه غير البهدلة وعمليات الإجهاض. إسماعيل الولد الذي كان يلعب جيتار؟ ألم يسافر إلى كندا؟ وقع على امرأة كندية أخذته معها وأنقذته من هذا الجحيم، وقال لمها نحن لن نتفق أبدا، من يومها ولها كل يوم حكاية مع واحد جديد. كنت أراها طفلة حُرمت الحنان، تصرخ في صمت، طلبا للمحبة والرعاية. ومع ذلك فقد كانت أنوثتها افتراضية. يا شيخ؟ هذا لأنه يقدس أكياس اللحم البلدي،

شأن كل جياع هذا البلد. يا عم والله أنا لا أكره النحافة، و لكن ليس إلى هذا الحد، فمها يعني لا تؤاخذوني قوامها قرودي، لا أرداف ولا نهود ولا يحزنون. في رأيي، كان سر جاذبيتها الأول هو وجهها الغريب، وكأنه لتمثال مصري قديم منحوت من جرانيت وردي صلب. وسبحان من ركب هذا الوجه على ذلك الجسد. سرعان ما عدتم رجالا يتحدثون عن امرأة. وما كنا غير هذا من الأول. وأكثر ما يعجبني في وجهها عينيها الرماديتين، أهي صعيدية فعلا؟ يا سلام، والرموش الكثيفة المقوسة، وأنا عندي ضعف طبيعي أمام الحواجب المقرونة الشعثاء، بما يوحي بنفسٍ غجرية شريدة، لا تميل للفتلة والحنتفة. كله كوم وصوتها وحده كوم ثان. ما أن كانت تغني حتى تتحول لمخلوق مدهش له أجنحة يرفرف بها لكنه لا يطير. سمعتها أول مرة بصحبة إحدى الفرق التي تقدم مزيجا من الألحان الشرقية و الغربية، ولم تغن إلا الآهات والليالي مع الموسيقى، إنما بتنويعات بلا نهاية، وليلتها فُتنت بها. وأنا سمعتها تؤدي الموشحات الأندلسية بواحدة من السهرات الرمضانية، كان أداؤها سهلا وشجاعا، لامبالية بمن حولها وما حولها، مثل من يغني لحبيب ضائع بين النجوم التي فنيت من ملايين الأعوام. ما كل هذا الشعر و الهيام؟ الحقيقة أنها خسارة. لكنها لم تأخذ الغناء مأخذ الجد أبدا، وكم أفسدت صوتها بالسهر والتدخين والشرب. أنت تعرف ماذا كان عليها أن تغني لو سارت في الطريق الطبيعي إلى الفضائيات والانتشار. ومن قال أنها لم تسع إلى هذا وفشلت؟ مازلت أراها طفلة موهوبة وضائعة، تفتقد الحب والأمان. لا تنسوا أنها حرة في نفسها، هذا هو الأساس. لعلها الآن تنتظر عريسا ملتزما بلحية عظيمة و ثوب أبيض قصير، ولد يكون بخيره لا سجائر ولا كحول ولا نسوان. من المنزل للجامع و من الجامع للعمل. لا أظن، ضع في اعتبارك أهلها و مستواهم، سوف يصطادون لها شابا من أسرة طيبة، له وظيفة محترمة وبلا لحية، وإن كان يحافظ على الصلاة، ليتحول النقاب مع الوقت إلى حجاب عصري بسيط على آخر صيحة. لكن مها ستضطر عندئذ أن تستعد قبل الزفاف الميمون بإجراء عملية بسيطة، تجنبا للفضائح. آخ، كيف فاتنا هذا الأمر؟ إياكم و الخوض في أعراض الناس يا شباب. نحن ننشد الوضوح و الصراحة، و ملعون أبو المظهر الزائف. لكن كيف صارت مها بين يوم و ليلة من هؤلاء الناس، و ليست واحدة منا؟ و لو

افترضنا أن دافعها لهذا السبيل كان سرا ربانيا بداخلها، و لو افترضنا أن طموحها الروحي ليس إكسسوارا رخيصا لزوم حب الظهور، فكيف يتحول البحر الهائج في نفسها إلى نبع ضحل، يسير محكوما بقيد العادة وكتب إرشادات الاستخدام التي لا يجب الخروج عليها؟ على الأقل هذا خير من الجنون أو الإدمان. وما كان يمكن لها أن تفعل، و كل ما يحيط بها يدفعها لاتجاه واحد وحيد يعد بالخلاص من الهم الغم والخونة والمدعين؟ أتسمون قراءة الكف والوجوه طموحا روحيا؟ لا تنس صوتها حين كانت تغيب في نشوة الغناء، ففي بعض الأحيان أوشكنا أن نعترف لها بالقداسة.

يونيو

لماذا لا أحاول أن أرسمها، هي، الرسامة؟ ولو بحروف سوداء، في لون ملابس حدادها الأبدي. تعرفونها، زوجة صديقنا وأم عياله، أقصد أرملته، ولكنها ترسم أيضاً، آه، مازالت ترسم!

أن أرسمها خلسة، دون أن أدري أنا حتى، إذ انفردت بنفسها على طاولة صغيرة يوم الثلاثاء العجوز لآتيليه القاهرة، أرسمها خلسة، في عقل بالي بينما أحاول إيهام الروائي الذي لا أحب ما يكتبه، رغم ارتياحي لشخصه كثيراً، أنني منتبه كل الانتباه لحديثه عن السيل المتدافع من الروايات الحالية الضعيفة البائسة، والتي يطبلون لها و يهللون. لم أكن أفهم مم كان يشكو: من ظهوره في وقت سابق على الموجة، كما أسماها، أم لأن موجته هو لم يهلل لها أحد؟

بقى ظل المرحوم يرفرف حول ابتسامة وجهها الخمري الريان، ويقطع الطريق على انفجار ضحكتها كاملة، أتذكرون ضحكتها؟ لم يعد أحد يريد أن يتذكر. وضع الموت حداً فاصلاً بيننا وبين تذكر مغامراتها معه، بيننا وبينها، بينها وبين ضحكتها المزلزلة.

أرسمها، دون أن أشعر أو أفكر، كأن أحلم بها تماماً، لا كأرملة الرجل الطيب و الموهوب الذي خطفه السرطان خطفا من بيننا، بل كامرأة عرفت الحب والخلف، عرفت الرجال خير معرفة، لكنها اضطرت إلى حياة القديسات، بقرار من السلطات العليا جداً، الأعلى حتى من خيالنا، الأعلى من القيم الجديدة التي ترفض القديمة بطبيعة الحال، لكنها تظل قيماً مع هذا. أرسمها كمن يحلم، كرجل بدين يفك حزامه بعد وجبة دسمة، غير عابئ بمجالسيه. أقول إذن، مازالت لها السمرة الحارة، السمرة المذهبة. سمرة المغيب الرائقة التي يحب نجيب محفوظ أن يشير إليها كثيراً في رواياته، معه الحق، ما أندر السمرة الرائقة يا عم محفوظ. كما أن بطن ساقها تعكس لمسة من ضوء ليموني، يعلم الله مصدره. هكذا أرسمها بألوان ماتيس الوقحة كأطفال سيئ التربية. أقول لعلها إذ تشعل سيجارتها الآن، تفكر في معرضها الأول والأخير،

الذي لم تبع منه لوحة ولم يكتب عنه ناقد كلمة توحد ربنا. أو تفكر في رجلها الأول والأخير، الذي تتجدد أسطورة حضوره و غيابه على أيدي أصدقائه المخلصين، من وقت إلى آخر، المخلصين أكثر من اللازم، المخلصين في حدود القيم القديمة و الجديدة و تلك التي ستأتي ذات يوم. القيم التي تضع الحدود بين الإخلاص و الخيانة، خط أسود نحيل مثل الذي يفصل دولة عن جارتها على الخريطة. خط وهمي، نستعين به على تحديد الجهات مع هذا، و تمييز الخطأ عن الصواب. لقد كانوا يغازلونها خلال حياته فعلاً، وضع موته خطاً، بين دولة وجارتها، بين ما نحن عليه و ما نود أن نكون عليه، قديسين و قديسات، هكذا علمونا، فثمة حدود.

كان صاحبي انتقل من التعميم، إلى التخصيص، وهذا معناه اختيار ضحية واحدة، فما جدوى القطيع بالنسبة لصائد جائع، كل ما يهمه فريسة واحدة، وسيكتفي الفكر النظري بحشر القطيع كله عمداً بداخل جسد هذه الفريسة الواحدة، وهنا ننتقل مرة أخرى من التخصيص إلى التعميم: "روايته زبالة! ليست لديه جملة واحدة صحيحة، أو حتى جميلة، ثم أنه يحكي مذكراته الشخصية لا أكثر و لا أقل. كلهم هكذا، إذا زعل الواحد منهم مع صاحبته، يقوم يكتب رواية، خرا!"

أم لعلها تفكر في منحة التفرغ، تشاور عقلها بشأن فرصتها الأولى والأخيرة للحصول على الدعم، الذي لابد أن يصل لمستحقيه، هي أم العيال، حتى لا ننسى، لكنها كل مرة تحمل فيها أعمالها وأوراقها وتذهب لتتقدم، تعود من أمام باب المبنى، دون أن تجرؤ على الدخول. لن تتسول، كلمة ورد غطاها، مازالت بصحتها، و قادرة على العمل. انظروا لمسة القداسة التي لا تنكرها هنا العين مهما كانت جاحدة.

أي أنها، على كل الاحتمالات تفكر في شيء ما لا يتكرر، شأنه شأن كل الأشياء الأخرى تقريباً، شيء هو الأول والأخير، مثل حياة شاعر مات، أو مضاجعة على نور الفجر تركته مرهقاً و سعيداً قبل موته بشهور، أو قصيدة مزقها في غفلة منها كتبها في أيامه الأخيرة، مشروع شاعر آخر سقط من أحشائها و هي على أعتاب حدادها الطويل. كأن هذا الجنين كان هو ظل صاحبنا، توقيعه، عضوه ينسحب من جسدها، بعد موت صاحبه، ببطء أليم.

يوليو

" أنت لم تعد تحبني يا أحمد "، هكذا نجحت حنان أخيرا في تلخيص دوامة المشاعر والأفكار التي طوحت بروحها خلال الأسابيع الأخيرة. نظرت في فضاء الملعب الفسيح، وكأن زوجها ماثلا الآن أمامها. "و لعل الطلاق أرحم من هذه العيشة"، أضافت على سبيل التداعي الحر، غير أنهما كانا قد تجنبا ذكر هذه الكلمة بالذات طوال الأزمة .

كانت الغسالة الفول أوتوماتيك مرتكزة على خط الوسط، بالضبط في مركز دائرة المنتصف من أرض ملعب كرة القدم، وحنان تتحرك ببطء حولها وتجمع قطع الغسيل في سلة من البلاستيك. وغير بعيد، كان كتكوت ينقر جدار سجنه، حين جاءت اللحظة المناسبة، صانعا مخاضه الخاص بيديه، أو بمنقاره للدقة. تسربت إلى عينيه أولى خيوط النور، فأغمضهما لاإراديا وواصل كفاحه وهو أعمى ضد الجدران. الكشافات الهائلة تضفي على الملعب الشاسع حضور نهار شرس، رغم نجوم الصيف المتهامسة بالأعالي.

الحق أن أحمد لم يسلم من لمسة تعال و لو هينة نحو حنان من البداية، على الرغم من كل مزاعمه التقدمية و الثورية، ناهيكم عن أسطورة الحب العزيزة على قلوب الجميع. إننا نخطئ عندما نثق في قدرتنا على تغيير شخص آخر إلى حد صنعه من جديد، لقد دفعها دفعا نحو سياق غريب عليها، و كانت يدفعها دفعا لتقرأ و تتثقف. يا سيدي أحمد غلطان، لكنه أحبها، وأحب أن يشغلها بما يشغله، لكي تذوب المسافات والفوارق بينهما تدريجيا، وهي، ألم تعبده كأنه صنم؟ وطاوعته في كل شيء مسلوبة الإرادة. ثم صحا كل منهما على واقع أثقل وطأة من أي كابوس.

ترى الآن أمها، قاعدة على كرسي الحمام الخشبي الواطئ الصغير، تفيض مؤخرتها المترامية عن حوافه، و قد باعدت ساقيها لتحتوي بينهما الطست العتيد، في مركز الصالة المشتركة بالدور الأرضي من المنزل القديم بالسيدة زينب، الذي تهدم من

زمان بأمر الله والحكومة. تخرج حنان من غرفتهم، التي يمارس بها سبعة أرواح كل طقوس حياتهم اليومية من نوم و أكل و مذاكرة و جماع، إلى آخر القائمة. تقف أمام الباب و بين يديها حفنة ملابس متسخة. ترى نفسها نحيلة العود و شاحبة قليلا، شعرها مهوش، لكن جمال أيام الشباب واضح برغم الفقر. تقول أمها بغضب مكتوم: "الآن ! الآن تقولين هذا يا حنان ؟ ...و النبي الناس خيبتها السبت و الحد و أنا خيبتي في عيالي ما وردت على حد". أمها قاعدة، لألف عام تقريبا، تمرش، تفرك، تدعك، تصبن، تحك، تشطف، تغلي، تزهر، تعصر، تنشر، وتكوي أحيانا، ثم تطبق. تنظر الآن حنان، إلى هذا كله، برعب يتجاوز رعب كتكوت خرج للمرة الأولى من حبسه المديد، ليفاجأ بالعالم فتسري في جسيمه الدافئ رعشة من وحشة أو من برودة هواء الخارج. العالم مرج أخضر مستو، مدرجات خشبية و لوحات دعاية عملاقة، و هناك السماء. لا أحد بانتظاره، و لكنه لن يستسلم لليأس.

لا نستطيع أن نلوم أحمد وحده مع ذلك. أذعنت هي لضغوط الحياة وكأنما بسعادة من يسترد عرشه على مملكة مفقودة. بل أوشكت أن تخرج له لسانها قائلة: "أرني ماذا ستفعل الآن، بكل كتبك وشعاراتك وأحلامك الساذجة، هذا هو العالم الحقيقي يا حبيبي، جواز وعيال ومسئولية، أفق، وهذه أنا على حقيقتي، لست مثقفة ولا ثورية ولا نيلة، إن كان عاجبك، هه". وفي المقابل أمعن هو في الابتعاد والهروب، ولعل نشاطه السياسي المحموم لم يكن إلا سجنا آخر، بناه حول نفسه بإرادته، لكي لا يرى العالم إلا مصفى عبر تحليلات مادية جدلية، لا يمكن دحضها و لا تغن من جوع.

تضع بعضا من مسحوق الغسيل في فوهة الماكينة الحديثة. تتساءل عن سر وجودها في هذا المكان وفي هذا التوقيت، وعن مصدر الكهربا ء الغامض الذي تستمد منه غسالتها الحبيبة حياتها الخاصة، وعن الطلاق: هل وقعت القطيعة وانفصلا حقا و صار الطلاق شبه محتوم؟ هل أنا الآن أمي؟ و البنات أكيد في سابع نومة. صحيح تحول الطست إلى غسالة من أحدث الأنواع، كم كانت سعادتها بها بريئة بعد أن اشترياها. كان

فيما سبق يغسل معها، و يلعبان معا برغوة الصابون. يغسلان وينظفان الشقة ويمارسان الحب ويستحمان، كل هذا في الوقت نفسه. مَهرجان، مهرجان. ثم على الفراش، يغني لها: " يا حنة.. يا حنة.. يا قطر الندى، يا شباك حبيبي يا عيني جلاب الهوى" لم يعد ينادها باسم حنة، لم يعد يدللها و لم يعد يحبها. تنظر إلى هذا كله الآن برعب لا يقل عن رعب مشهد أمها المرحومة وهي قاعدة لتغسل. تدفع بكباس الوابور دفعات قوية متتالية سريعة، بعزم ما فيها، فيتوهج تاج النار ويبيض لونه، مطلقا فحيحا شديدا ومنذرا، وتقول دون أن ترفع رأسها عن صفيحة الغلي فوق النار: "الآن تقولين هذا الكلام؟ أليس هذا هو أحمد الذي خطفك من وسطنا في يوم و ليلة، و هربت معه بشنطة هدومك مثل البنات المرقعة. كاد عقلي يطير من الفضيحة و لولا ستر ربنا كان أبوك طب ساكت. لم يصدق أحد. حنان العاقلة الكاملة تفعل هذا، و الآن تفكرين في الطلاق و تخافين على نفسك من مصير أمك الغلبانة ...فكري في البنات و صلى ع النبي يا بنتي."

لا بأس، سيسعى في هذه الأرض، ليجد قوته و يصنع حياته و يعيش إلى الأبد. الكتكوت لا علم له بمسائل مثل الزمن و الموت، إلخ. علاوة على أنه قد دخل إلى العالم منذ لحظات، لكنه جائع، و هذا بالنسبة له يقين لا لبس فيه و لا يحتمل التفاوض.

براتبه إلى راتبها عاشا شابين صغيرين في وظيفة حكومية تافهة، تنكر كل منهما لأهله وطبقته على اختلاف الأهل والطبقة. تشبث الواحد بيد صاحبه كطوق نجاة وحيد وسط جحيم العالم. كتفا لكتف، يقرآن ويتناقشان ويطبخان ويجتهدان في فك شفرة الجسد المرة تلو الأخرى، حتى انقطاع الأنفاس. هذا هو المستحيل، الانسجام النادر بين روحين في جسدين. طارا، حلقا فوق الظروف والفروق الفردية وقوانين المادة. " يا حنة ! يا حنة ! يا قطر الندى ! " ثم جاءت البنات، فانضممن إلى المهرجان على الفور، رقص وغناء واستحمام جماعي. مهرجان، مهرجان. ثم مرضت الصغيرة، ولجأ لأهله للمرة الأولى، وأبدى أشقاؤها الرجال مساندة غير منتظرة، لكن البنت ماتت وانطفأ نور المهرجان، وخلت الساحة فجأة على صمت عظيم.

حنان ترهل جسمها ويخشوشن صوتها. حنان انقطعت عن حضور الندوات و النقاشات السياسية. حنان لا يلومها أحد و لم يتحرك نحوها أحد، ولا حتى هو، بل غاب بالساعات والأيام والأسابيع، ظل غائبا ولو كان موجودا في البيت، يأكل و يقرأ و يعمل على رسالة الماجيستير. "أنا الآن أمي ، و ما العيب في هذا؟" تناهى إليها حديث عن علاقته بإحداهن ولم تصدق، لكن الوساوس أكلتها.

شق كتكوت سبيله في ملعب كرة قدم بمنتصف ليلة صيف حتى وصل بعد كفاح شاق إلى قرب دائرة المنتصف. البنات ثلاث، واحدة ماتت و اثنتان نائمتان الآن. ماذا لو طلبت الطلاق؟ هل يوافق أم يعود لها؟ هل تعود لها بنتها أيضا؟ و الحنة، ماذا عن الحنة؟ أمها قاعدة تغسل، رغم أنهم دفنوها قبل سنوات. جاءها الكتكوت، اقترب من قدميها، فانحنت عليه، و كأن حضوره لم يفاجئها كثيرا. بسطت كفها فتسلقه وراحت تتأمله للحظات. رفع رأسه الصغير نحوها، راعها منقاره و نظرة عينيه شبه المستديرتين، النظرة الخالية من أي تعبير أو معنى. تمالكت نفسها بسرعة و فتحت باب الغسالة ثم ألقت به إلى غياهب أحشائها الدائرة .

أغسطس

يعلم الله أنني لست جاحداً ولا خسيس الأصل، ولكن ضع نفسك مكاني:
يهبط عليك فجأة أحد أقربائك البسطاء، بعد أن تكون قد نجحت – دون قصد حتى

– في شطبه من دماغك نهائياً. لاحظ أنه أحد هؤلاء الذين ترفرف حول رؤوسهم عصافير طفولتك الكريهة، ممن يعطون لأنفسهم كل حقوق الدم والرحم والصلة، دون أن يكون أيا منهم عما أو خالا، مستندين في ذلك إلى حادثة مشكوك فيها، تبولت فيها على حجرهم ذات نهار أغبر. ولم تكن يا مسكين لحظتها إلا رضيعا، لا يدرك العواقب الوخيمة لحماقته تلك، إلى أن يواجهها ذات مساء صيفي خانق، على عتبة داره المتواضعة، بعد ما يربو على ربع القرن؛ خلال زيارة تذكارية كهذه.

تقدم اعتذارك عن ضعف ذاكرتك، لأنك لم تتعرف عليه على الفور، ثم أنك تبش في وجهه، وترحب به، دون أن تخاطر بمسح القبلات التي انهالت على خديك، و بالقرب من شفتيك للغاية، مزودة باللعاب الأليف لكائنات الفطرة والأصالة التي كيف تهنا عنها طوال كل ذلك الوقت؟ ويروح يحك نعليه بسجاد أمانك المنزلي، وتشملك قرقعة صوته باللكنة التي تضعك في " الفلاش باك " بضربة واحدة. بينما تقف بين يديه زنهار، لتلبية أهون إشارة، تواليه بالساخن الذي يجده فاتراً، و البارد الذي يجده مثلجا للغاية، فيلعن أسنانه و ضروسه، واحداً واحداً، و كأنها عياله الأغبياء، دون أن يتوقف، أثناء هذا، عن إبداء أسخف التعليقات، حول منظرك في صورة الزفاف، و عن سر غياب زوجتك و سبب سفرها إلى أختها، و هل هناك أية خلافات بينكما لا سمح الله، و عن جدوى كل تلك الكتب المكومة هنا و هناك، مع أنك قد أخذت الشهادة من سنين. وهذا كله غيض من فيض فهو لم يبدأ بعد وصلة النوستالجيا و استدعاء طفولتك، و علاقته بأهلك، رحم الله الجميع. لن تجرؤ طبعا على سؤاله عن سر الزيارة السعيدة، لن تمتلك حتى الحق في كراهيته، أو الإساءة إليه بأفكارك. وعندما يكسر بحركة خرقاء التمثال الإفريقي العزيز، تزعم له بأقصى ما تملك من برودة أعصاب أنه قطعة خردة بلا قيمة، فيضيف هو لفتة ذكية عن تحريم الأصنام.

الجانب الأخطر لهذه الدراما المستهلكة هو الرائحة. مهما تجاهلتها أو خدعت حاسة الشم مرارا، الرائحة القديمة نفسها، و قد عادت عفية كاسحة، رائحة مختمرة و

خصبة، تغري بالفحش و الجنون، دون أن تملك القدرة على الصراخ، مستجيرا منها. يكفي أنها سوف تحرمك، لأيام أثناء و بعد الزيارة، من نوم حقيقي و لو لساعة واحدة، من غير كوابيس تعود بك فجأة إلى زمن الغريزة الصرفة والأعياد الحسية مكتملة البشاعة.

بعد الأيام الثلاثة الأولى، تبدأ الهلاوس السمعية والبصرية في الظهور عليك، فتسمع أصوات الخراف والماعز والجاموس والخيول والبغال والحمير والدجاج والبط والإوز والديكة، والقائمة بلا نهاية، وترى أعواد البرسيم والهيش والبوص والحلفا تنمو بوحشية في أركان غرفة المكتب، وكلما دخلت الحمام فاجأتك هناك فلاحة شابة تتعرى في ترعة ضحلة. وحتى ولو أنكرت أوهامك تلك، كلها، رغم ما في هذا من استحالة، فكن مستعدا لقوافل الناموس و البراغيث التي حطت رحالها، بين عشية وضحاها، في غرفة نومك، وموليّة وجوهها شطر وليمة جسدك، كل بوصة من جسدك، بهدف تدمير أعصابك، حتى لا يبقى بينك وبين الانهيار العصبي التام إلا شعرة.

عندئذ، وبالأمانة يا شيخ، بحق جاه النبي محمد، ألن تفعل مثلما فعلت أنا، وتأخذه من يده برفق حاسم، لتوصله بنفسك إلى المحطة، أو إلى بيت آخر، يسكنه شخص آخر من معارفه، قد يكون أكثر حرصاً على صلة القربى وتداعيات الجذور.

مازلت حتى هذه اللحظة، أنفق كل وقتي وطاقتي في إزالة آثار العدوان ومطاردة أشباح الماضي البعيد، ولا يبدو أنني سأفلح في ذلك عما قريب.

سبتمبر

ألم يتأخر؟

لم نتفق معها على موعد محدد، وهي حرة تظهر وقتما تشاء. حاول أن تتغلب على توترك، لكي تكسب ثقتها، وتذكر أنها فرصة نادرة في مسيرتك المهنية.

لست متوترا... ولكن ...قل لي... هل سيأتي في ملابس نساء؟

طبعا، إنها لم ترتد قطعة ملابس رجالية منذ أكثر من عشرين عاما. وإياك أن توجه لها الحديث بصيغة المذكر، ويستحسن أن تبدأ منذ الآن في التحدث عنها، وليس عنه، حتى تتدرب، اتفقنا؟

لا بأس، ما الذي قلته لها عني؟

أشعلت اهتمامها بطريقتي الخاصة، قلت إنك معجب، شغوف بهذا الصنف من زمان، فاندهشت هي لعدم معرفتها بك، حتى الآن، فزعمت أنك نشأت وتعلمت بالخارج مع أهلك، ثم عدت من أعوام قليلة، ولا تعرف هذه الدوائر هنا. لكنك عندما سمعت بها مني توسلت إلي لأقابلك بها.

عظيم... ولكني....مازلت أرى أن نصارحه، أقصد نصارحها بالحقيقة، للنزاهة، ولعلها توافق إذا استطعنا أن....

ما أنت إلا مغفل حقا! ماذا قلت لك أنا؟ لو شمت خبرا بأنك صحفي، لسودت عيشتي وعيشتك، إن غضبها عاصف، ولا قبل لنا به. في لحظة، تنقلب اليمامة الوديعة إلى ثور هائج.

يا ساتر يا رب.

اسمع كلامي وأتقن دور المعجب الولهان.

كأنك تسخر مني.

أنا أمنحك فرصة نادرة، فأثبت أنك تستحقها...قدم لها البيرة، ولو طلبت مشروبا آخر فلا بأس، وستجد أنها راحت تحكي لك قصة حياتها تلقائياً.

الخوف لو سكرت وفضحتنا في المكان.

تسكر، هي، مستحيل. إنها اسفنجة حقيقية. المهم ألا تسكر أنت يا شاطر، فيفلت لسانك بشيء.

اطمئن، أنا أشرب ببطء، وأعرف متى أتوقف. ما رأيك لو أدرت المسجل، خلسة، وهو في مطرحه بالحقيبة، حتى لا يضيع شيء من الحوار، وليصبح بحوزتنا كذلك دليل مادي، فلا يتهمنا أحد بالتلفيق.

أنت حر، ولكن قد يزيد هذا من ارتباكك أمامها. وافترض أنها اكتشفت وجوده، تذكر كراهيتها للصحافة و الصحافيين، وتذكر غضبها وما غضبها.

يا الله، كيف لها أن تسير هكذا، بملابس امرأة، في شوارعنا المهددة، ألا تخش افتضاح أمرها؟ ألا تخش الشرطة أو الناس العاديين حتى؟

لا يعرف حقيقتها إلا المقربين منها، كما أنها لا تبدو رجلا بالمرة. منذ مراهقتها تقريبا، صدقت أنوثتها، بل واندفعت تمارسها بلا تورع.

كيف؟

كانت تذهب إلى المدرسة بأظافر مطلية، ومساحيق خفيفة على وجهها، وشعر طويل مسترسل. تغوي التلاميذ في الصف، وتنفرد بهم في دورة المياه، حتى تورط معها واحد من المدرسين فطردوها ونقلوا المدرس.

وأهلها...؟

ليس لدي أي معلومات عنهم، وكثيرا ما يبدو الأمر وكأنها تربت وكبرت في الشوارع. أما رجال الشرطة، فمن كانوا يعرفونها منهم ذهبوا مع الأيام، وكانوا قد يئسوا منها. في شبابها فقط، قبض عليها كثيرا، وقضت فترات غير قصيرة تتنقل بين السجون والمصحات النفسية، ويحكى أنها كانت تحتفل بالسجن مع الرجال وكأنها مسافرة للسياحة في أوروبا. حاولوا ترويضها كثيرا، وبأعنف الطرق، ولم يفلح معها شيء. ظلت الأنثى التي بداخلها تنمو وتترعرع، إلى أن طلع لها ثديان...

ثديان؟ مستحيل. لماذا تصر على السخرية مني؟

أنا لا أسخر منك يا ابني والله، وسوف ترى بعينيك بعد قليل.

و لكن هذا مستحيل.

ألم تسمع أو تقرأ عن قوة الإيحاء، وما يمكنها أن تؤدي إليه. لقد قرأت ذات مرة عن مرضى نفسيين، يعانون تعدد الشخصية، يتغير لون أعينهم عند انتقالهم من شخصية إلى أخرى. هذه حقائق علمية.

لعله الإيحاء و لعلها هرمونات تناولتها.

المهم أنها الآن لا يمكن تمييزها عن أي أنثى أخرى.

أحاول جاهدا أن أتخيل هذا.

ما رأيك في بروفة صغيرة، قبل أن تصل؟

بمعنى...

ألعب أنا دورها، لتحاول أنت الدخول في الجو.

موافق.

و لكن بلا مزاح، تصرف وكأنك تجلس أمامها هي، وأنا لن أخرج عن دوري مهما حدث، حتى تصل هي.

و هل سنكون أنا وهي بمفردنا، أقصد ماذا عنك أنت، شخصيتك الحقيقية يعني؟

اعتبرني غادرت المكان يا أخي.

ليكن، فلتبدأ الآن.

هل أنت حقا معجب بي؟

لا يكذب الرجل في أمور كهذه.

و لكنك شاب و أنا، امرأة... لنقل إنني فارقت الشباب للتو... لماذا تضحك؟ هل تجد كلامي مضحكا؟

بالمرة، تذكرت شيئا قاله صاحبنا المغفل.

ما هو؟

قال إنك تبدين مثل أي أنثى أخرى، لكنه لا يدرك أنك تبدين، في عيني، أحلى من أي أنثى أخرى.

لا داع للتملق، أنا امرأة عادية.

عادية؟

إن ضحككم مستفز.

اعذريني يا هانم، لقد أفرطت في الشراب، وأنا غير معتاد.

لا يعجبني الرجل الذي يسكر من كأسي بيرة.

من أجل خاطرك سأتمرن على السكر، بالتدريج، ولكن أخبريني هل أنت مرتبطة حاليا؟ قلبي يقول لي إنك وحيدة، ألست وحيدة؟

صحيح، انفصلت منذ عام عن رجل أفسد حياتي، وأنت؟

لقد عثرت الآن على ما بحثت عنه طوال عمري؟

كلامك مثل كلام الأفلام.

الأفلام تسرق المشاعر الصادقة من أفواه أمثالي من المغرمين. أخبريني، لماذا انفصلت عن ذلك الرجل، وكيف أفسد عليك حياتك؟

كان مريضا نفسيا، امتلأ عقله بالأوهام، وكاد يجرني معه إلى الجنون.

كيف؟

لم يشعر قط بالرضا عن نفسه، بل كره نفسه وكره ميوله وكره الإنسانة التي يرضي معها هذه الميول. كرهني، أنا، الإنسانة التي ضحت بجواره بأجمل سنين عمرها، في الظل والسر. وبدأت تراوده أفكار غريبة، ويفكر في الزواج. كان رجلا غير طبيعي بالمرة. مازال ضحكك يغيظني، لكنك سكران، على ما أحسب.

أنا آسف.

فيك شيء غريب، شيء في غير موضعه و كأنك تتظاهر بأنك شخص آخر.

كل منا يتظاهر بأنه شخص آخر.

ما معنى جملتك هذه؟ هل تلمح إلى شيء ما؟

لا معنى لها، تقريبا، لقد قرأتها في كتاب ما، وتذكرتها الآن فقط.

أنت إذن من النوع الذي يقرأ الكتب.

قليلا جدا.

لماذا أعجز عن تصديقك؟

أحيانا، نتعود على الوحدة والبؤس، حتى نظن أننا لا نستحق السعادة، فلا نصدقها عندما تدق أبوابنا.

كلام أفلام، لكنه يعجبني رغم كل شيء.

احكي لي عن تجاربك السابقة، أرجوك.

أنا لست في لقاء تليفزيوني على ما أظن.

بالطبع، لكني متلهف على سماع كل شيء عنك.

ألم يحك لك صاحبنا المغفل؟

مجرد خطوط عريضة.

و أنت تريد التفاصيل والأسرار، بالطبع.

هل أطلب لك بيرة أخرى؟

و الآن تسعى لأن تسكرني، أنت ولد شاطر فعلا.

افعلي ما يحلو لك، لكن صاحبنا أخبرني أنك تحبين الشراب.

لو كان أخبرك بأنني سكيرة حقيرة يمكن شراء تاريخ حياتها بكأسين براندي، فلسوف أمسح به الأرض.

هدئي من روعك يا ست الكل، صاحبي يحبك و يحترمك. ما هذا؟ هل تضع عدسات؟

هل قلت "تضع"؟

أقصد هل تضعين عدسات؟ كان لون عينيك منذ قليل بنيا و الآن؟

لون عيني أخضر من يوم ولدت، واضح أنك سكرت تماما.

ربما، أنا... لا أدري.... هل يجب أن نستمر في هذا؟

كنت تذوب غراما قبل لحظات، والآن تود الفرار.. هل أبدو لك ريفية ساذجة بهرتها أضواء المدينة؟

حاشا لله، أنت ست الكل، ولكنني دائخ وقلبي تتسارع نبضاته بصورة مقلقلة.

إنها علامات الحب. والشيء الطيب أنك توقفت الآن عن الضحك. ما كل هذه الأوراق التي في حقيبتك؟

إنها تخص العمل.

أي عمل؟ ماذا تعمل؟

أعمل... محاسب... في شركة مقاولات.

لا تبدو كمحاسب، إن لغتك وتصرفاتك أقرب إلى الشعراء و الأدباء... أرني ما في هذه الحقيبة. أطلعني على دفاتر حساباتك يا صغيري.

إنها أسرار عمل يا ست الكل، هذا لا يجوز.

جرائد، مجلات، كتب. و هذا... أليس مسجلا، و كان دائرا أيضا؟ منذ أن رأيتك وأنا يراودني شعور غير مريح.

لا تنفعل هكذا، لقد تمادينا في اللعبة بلا داع، وهي لم تأت إلى الآن. الحكاية أنك تسخر مني و تخيفني، ولا أفهم لماذا.

كلمني مرة أخرى على أنني رجل ولن تتعرف أمك على وجهك.

أرجوك يا هانم، سامحيني، لقد تعرضنا أنا وأنت للخداع.

أشعل لي سيجارة بسرعة، أنا متوترة، ولا أدري ماذا سأفعل بك.

الحق أنها فكرة صاحبي، لعنه الله!

لي حساب مع ذلك المخنث، فيما بعد!

مخنث؟

أنت لا تعرف شيئا، أنت مجرد طفل، تاه، بحقيبة مدرسية، ولكنك بحاجة إلى تربية.

اهدئي، أتوسل إليك أن تهدئي. لست مضطرة إلى أي أفعال عنيفة. يمكنني أن أمضي الآن ببساطة، و كأن شيئا لم يكن!

أتظنها لعبة يا روح أمك؟ أنا سأعلمك أصول اللعب يا شاطر.

الناس تتفرج علينا، ألا يكفي هذا؟

قم معي الآن.

و لكن إلى أين؟

إلى حيث أشاء.

ما معنى كل هذا التظاهر و الإدعاء الآن؟

ألست المعجب الولهان بي؟

سوء تفاهم، مجرد سوء تفاهم، وكلي أسف.

ليكن سوء تفاهم أو ليكن ما يكون، فليستمر إذن حتى صباح الغد!

أكتوبر

تطلين من الصور، بابتسامة ساخرة أو لسان مدل أو أي وضعية غريبة، فأقول: آزميرالدا. لم أعد أذكر اسمك الحقيقي، وكنت تشبهين آزميرالدا، لم يكن ينقصك إلا عنزة تصاحبك كظلك، لكي تصيري هي. الغجرية التي تسكن الكتاب وأرهقت روح الأحدب والقس الشرير وآخرين.

في الصور، يظهر التباين بين جسدي الضئيل النحيل، وجسدك الفارع السارح. أنا، وكأن بي رغبة في الانكماش والاختباء، لكنك واضحة تعلنين عن نفسك ببساطة وبلا تباه، رغم الأقنعة البهلوانية التي يتخذها وجهك. أنا عنزتك إذن، العنزة التي لم تكن لك قط، في المزرعة التي ظلت حلما عابثا، من بين أحلامك التي بلا أي أساس واقعي. احتضني إليك العنزة الوحيدة مثلك، ودعك من الرجال الطامعين.

جمعتنا المصادفة، في ملتقى المبدعين الشبان ذلك، بين آخرين من عرب وأفارقة، وكنت ببساطة شيئا آخر. لا أنت جزائرية ولا فرنسية، لا شاعرة مخلصة للشعر وحسب، ولا ممثلة مسرح لا تتقن سوى أن تتقن دورا، لا بنتا تربك الرجال ولا شابا يغوي البنات. كنت امرأة ما، تعيش في فرنسا وأصلها جزائري، تكتب شعرا تخفيه عن الجميع، و لها محاولات محدودة في التمثيل والكتابة الدرامية، امرأة قد تتجنبها البنات، عندما يشعرن بالحفاوة الزائدة التي تخصهن بها، وتصدم هي الرجال، برفضها محاولات التقرب في استهانة. أدرك، الآن، أننا، معاً، كنا شيئا آخر.

أنت آزميرالدا، بوجه مستطيل و ذقن حادة و لون قمحي، مثل لون أخواتي البنات. شعرك مهوش على الدوام، لا تتذكرين المرة الأخيرة التي قمت فيها بتصفيفه، تقولينها ضاحكة، فأردد من جديد: غجرية. اكتشفنا ببساطة أننا لو كنا نعيش في المدينة نفسها، لصرنا صديقين حميمين، بكل تأكيد، لماذا؟ الله أعلم. لعلها ليست فقط أصول كل منا المتواضعة، ولا نفورنا من نفاق وزيف الفنانين والمثقفين، لعله شيء آخر، لم أصرح به أنا ولا أنت. كان على طرف اللسان، لكننا ابتلعناه، فلا كان حلوا ولا كان مرا.

ندخل إلى متجر الألبومات الموسيقية، أطلب منك أن تختاري لي ما تحبينه من موسيقى غربية، تبحثين ولا تجدين ما يروق لك إلا إيديث بياف وجاك بيرل، وآخذ أنا

لك فيروز وأسمهان، رغم لغتك العربية المحطمة تماما، فهل أعجبتك الموسيقى؟ هل طابت لك الأصوات على الأقل؟ لن أعرف أبدا، كما لن أخبرك أنني بحثت عن أغنيات ليو فيري حتى وجدتها. قد لا تذكرين الآن هذه الرحلة بالمرة، لم تأخذي صورا كثيرة لها، قلت إنك تفضلين الاعتماد على ذاكرتك في استرجاع المشاهد، وإن الكاميرا وانشغالنا بها يربك عمل الحواس، في داخل تيار اللحظة. لم أقتنع كثيرا، وهاهو وجهك أمامي، فأين اسمك؟ ثم ضبطتك تلتقطين صورا يوم حفل الختام، فسخرت منك كثيرا، قبيل أن يجمعنا مكاننا السري، حتى الفجر، تقريبا.

ليس لدي رقم لك، ولا عنوان، للبريد العادي أو الألكتروني. لا شيء، هكذا ربما كان الاتفاق غير المعلن. فقط وعد بالتذكر، واحتمال ساذج بلقاء ثان، في مكان ما، عند تقاطع طرق ما. لكن سامحيني، فبماذا سأناديك عندئذ، بعد أن نسيت اسمك، و تخلصت من أوراق ذلك الملتقى، قبل ذلك بكثير، وبوقاحة أدبية، أسميك الآن آزميرالدا، دون أن أقرأ حتى رواية أحدب نوتردام. دعك من احتمال اللقاء شبه المستحيل، ماذا لو أشار أحدهم نحوك، في الصور، و سألني: "مين البنت دي؟" ؟

نجلس في مكاننا السري المعتاد، لآخر مرة، سوف نسافر في نهار الغد، أنت عند الظهيرة، وأنا في أول المساء، كل إلى جهة. إنه الدرج الداخلي للفندق، حديدي ومفتوح على قطعة من سماء تلك المدينة العربية الصغيرة والبديعة. صار هذا الدرج مستقرنا الليلي، عند نهاية كل يوم، بعد إرهاق وضجيج ومشاوير، بعد ورش عمل وإلقاء ، و كلام لا يؤدي ولا يجيب. رفيق غرفتي مثل رفيقة غرفتك، حريصان على الصحة والسلامة، ولا يسمحان لنا بالتدخين بالداخل، ناهيك عن الشرب أو الثرثرة حتى الثالثة صباحا. لو أننا مبدعون كبار، لكان لكل واحد منا غرفته الخاصة. اكتشفت أنت المكان، وأخذتيني إليه، قائلة : "البلاصا بتاعي"؛ مكاني الخاص. الآن نودعه، بمحض حريتنا، فقد سافرت مسبقا رفيقة غرفتك، تاركة لك فراشين وفضاء خاص. أنت الآن مبدعة كبيرة، ولو لليلة واحدة.

سأقول: إنها آزميرالدا، صحيح، اسمها غريب قليلا. أصل جزائري ومواطنة فرنسية من الدرجة العاشرة. لا تشتري إلا الكتب القديمة، تلك التي قرئت ألف مرة، وعليها بعض علامات قرائها السابقين. لا تمتلك إلا قطع الأثاث المستخدمة، تأتيها هبات أو من أسواق السكاند هاند، ليست قديمة لدرجة أن تصبح آنتيكات طبعا. لا ترتدي إلا الملابس المتينة التي ذاب أصحابها دون أن يذوب نسيجها، فبيعت مرة بعد أخرى، ماركات أصلية من أزمنة مختلفة، لتجتمع في هيئتها أناقة عقود مختلفة للقرن العشرين. وتكتب شعرا، عن رجل صغير يركض، ولا أحد يعرف السبب، ولا هو نفسه. أسألها: أهو طفل؟ فترفع منكبيها بغموض. عن أنامل البنات، وما يمكن لامرأة ما (أسألها: أهذه القصيدة عنك أنت؟) أن تكتشفه عنهن من مجرد تأمل الأنامل. تضحك ولا تجيب. تكتب مسرحية قصيرة عن باريسي أسود، فقد النطق في حادثة حريق مبنى، يهوى تجميع علب السجائر الفارغة من كل الأصناف، يبني بها سفنا عملاقة، أساطيل كاملة، وأديرة وكاتدرائيات وناطحات سحاب، ثم يشعل النار فيها، بوسط الشارع، آخر النهار، الناس تتفرج، ولكنه لا يدخن أبدا. أسألها: هل عرفت شخصا يشبه هذا الشاب؟ فتهز رأسها نفيا، بحسرة.

هذا كله كلامك، و صمتك، فأين اسمك؟

صوتك يلون ظلمة الدرج الحديدي بضحكات فسفورية الألوان. ومن وقت إلى آخر تقرقع علبة بيرة فارغة بعد أن نلقي بها من مكاننا. أفاجأ بأنك تكسبين قوتك بالعمل جليسة مسنين، وتحكين عن زبونتك الأخيرة التي هربت منها، أرملة واحد من جنرالات أمريكا اللاتينية المخلوعين، فوق السبعين، بعين واحدة وبلا نهدين، ومستعدة لمواصلة السهر ثلاث ليال على التوالي، وهي تأكل وتشرب وتدخن الماريجوانا، وتحكي.. تحكي.. تحكي... وأنت، بجوارها، تفرفرين، تدفعي نصف عمرك مقابل ساعتين من النوم، لكنها تغريك بالمزيد من الدخان، بعد دخولكما في حلف سري، ضد جميع الآخرين وجميع التعليمات. ساعة نوم لوجه الله، ولكن قد يكون هذا هو آخر أيامها، لم

يعد هناك الكثير من الوقت لتضيعه في النوم، وتلكزك لتنتبهي وتواصلي الإنصات لحكاياتها، كأنها تخشى لو توقفت عن الحكي أن يتلاشى تاريخها المجيد في طرفة عين، بل وقد تنسى... تنسى حسن شبابها، ونهديها اللذين طالما تفاخرت بهما، قبل أن يقصهما الأطباء، قد تنسى غرامياتها المجنونة، قبل وبعد الزواج، والرصاص الذي أطلقه المهووسون بها على بعضهم البعض، وليالي الرقص والغناء لحد الصبح، والصراخ من المتعة، والدموع التي تعطر الرسائل عند كتابتها أو قراءتها، بل وقد تنسى إذا ما سكتت اسمها نفسه، فيلتهم البياض الأثيم حياة، يأكلها هي، أو ما تبقى منها، الرفات.

وتلقين بعلبة أخرى، لتتخبط بالسلالم المعدنية حادة الزوايا، سلالم بئر النسيان. أنظر إلى الأسفل فيصيبني الدوار، أقول إنهم محقون جميعا، في خوفهم من ظلمة بئر النسيان، انظري. و تضحكين. هل نحن، أنا وأنت، للنسيان إذن؟ ألا نطمع حقا، في ملعقة صغيرة من إكسير الخلود؟ أن يبقى منا ولو الاسم فقط؟ على لسان فرد من صلبنا، ويتعهد بنقله، مع الصور والحكايات العائلية التي تناطح الأساطير، إلى فرد آخر، من صلبه كذلك، وهكذا، لما لا نهاية؟ تتوارثنا الأجيال يعني؟ فخ الحب، شرنقة الأسرة، بيت العنكبوت. دعك من هذا، نحن شيء آخر، هذا واضح، وإن لم نتصارح به حتى في تلك السهرة الأخيرة؟

سأقول: إنها آزميرالدا، بنت مجنونة، فضحتنا أيام الملتقى. مرة خلعت حذائها وجعلت تركض في الشارع، ونحن خلفها، لا ندري ماذا نفعل، فركضنا جميعا. شباب، تتراوح طموحاتهم ما بين الخلود وقضاء ليلة حب عابرة ونشر قصيدة. غرباء، جمعتهم المصادفة بدعوة من الجهة المستضيفة، اكتشفوا فجأة حلاوة أن يكون المرء شابا و ضيفا على بلد غريب، فيركض وراء غجرية.

وأخذت ترقصين، في ساحة صغيرة، قرب البحر، على عزف ولد من أهل البلد يلعب بالأكورديون. وبعد أن كان الناس يتجاهلونه، التفوا حولكما في ثوان. ورقصت لهم، للجميع، في سماحة نفس غجرية أو مجنونة. وأنا أتخفى بين الجمع الصغير، متبرئا من

تهمة معرفتي بك. رقصك لا هو شرقي و لا هو غربي، مزيج غامض، تماما مثل ملامحك و قطع ملابسك. رقصتك بصراحة، مثلي ومثلك، مضحكة قليلا، شيء غير ما يعرفه الناس، شيء آخر. لكن جسدك جسور مع هذا، يتوتر ويتصلب حينا وكأنه قامة جندي جريح في معركته الأخيرة، ثم يلين و يتهادى كأنه بدن صبية مراهقة تسكر لأول مرة. بدا وكأنك سوف ترقصين إلى الأبد، لولا أن أنهى الفتى المليح عزفه، خشية ملل الزبائن وتفرقهم، دون دفع. فككت وشاح رقبتك، وفردته على كفيك، و أخذت تجمعين العملات الصغيرة، في تجاهل للكلام الشائن الذي تناثر من بعض الأفواه، بالعربية و الفرنسية. وأعطيت النقود كلها للولد، الولد ذي البشرة الوردية، بعينيه الضيقتين العسليتين، و رموشه الكثيفة الكحيلة، وحاجبيه المقرونين، والذي أراد انتهاز الفرصة على الفور، فقدم لك عرضا بالعمل معه، بل والعيش معه، كلا، بل معهم، أمه سوف تسعد بك كثيرا، فلم ترزق ببنات. ورحت أنت تمطرينه بالأسئلة، عن أمه، سنها، وماذا تحب وماذا تكره، وهل تربي طيورا أو حيوانات. ثم قدت الحوار إلى غرضك الأساسي، الذي سألت عنه طوب الأرض، منذ وصولك. أريد حشيشا، بلدكم العظيمة مشهورة بحشيشها العظيم، أنا ضيفتكم، وأنا أختك أيضا. أين كرم الضيافة؟ و الولد المسكين يشحب لونه، ويتلعثم ويحاول تغيير الموضوع، ثم يعلن أن عليه الذهاب الآن، فورا.

في الليلة الأخيرة، جلبت أنا علب البيرة، و انتظرت حسب الموعد، في مكاننا المعهود. هامش الفندق، سلم الطوارئ، بئر السنيان. وجلبت هي الحشيش، أما كيف ومن أي مكان وعلى يد أي شخص، فلم أعرف و لن أعرف أبدا. وراحت تعد اللفافات بدربة وسرعة، وتقسو علي بكلامها، وكأنها لا تريد لنا أن يخذلنا حنان الوداع، مثل أخت تعد لأخيها المجند حديثا سلة السفر، إلى كتيبته، على الجبهة، بتكشيرة مصطنعة، حتى لا يضعف. تقول لى لا أعرف كيف أثق فيك وأنت لا تعرف حتى لف السجائر؟ أنت أطيب من اللازم، وخجول مثل البنات، ومغرم بإرضاء الجميع، وهذا مستحيل. لا تنتقم منهم على الورق، انتقم من أولاد القحبة هؤلاء في الحياة، على الأرض، لكي لا تشيخ بسرعة بسببهم. إذا كانت الدنيا قاسية، فلم لا نكون قساة

مثلها. لا تخجل من نفسك، ومن لا يعجبه يشرب من البحر. أنصت أنا مبتسما، وأستعد بالكلام السخيف الذي سأقوله ضدها بعد قليل، حتى تتوازن السهرة، ولا تظن أني أستنكف عن نزالها.

قرب الفجر، الحقائب معدة، المدينة نامت أخيرا. أتكور على فراش رفيقة غرفتك التي سافرت، وتتمددين أنت على فراشك. نفدت منا البيرة، ولم يعد بك طاقة لمزيد من اللف. مستنفدان تماما، من الشرب والتدخين ومن الكلام والتفكير. مرهقان وسعيدان، سعادة اقتراب النهاية أو استعجالها. رقدنا دون أن ننام، لبرهة، في نصف العتمة، وضوء الحمام الضعيف يلعق جدارا من الغرفة، محدقين في السقف، ومنصتين لأنفاسنا، أشبه بأخ و أخت. سافر الكبار فجأة إلى بلاد بعيدة، و لعلهما لن يعودا أبدا. أخ و أخت، متشابهان في كل شيء ومختلفان في كل شيء كذلك، مثل صورة في مرآة، تبحث عن أصلها في الجهة الأخرى.

بمعجزة النوم وحدها، هزمنا خوفنا من سفر الغد ومن قسوة الصحيان من الحلم، ومن عاملات الفندق الواشيات.

نوفمبر

إنكم لا تصدقون أن المادة التي صنعت منها الحياة هي المأساة. الإنسان، تحديدا، مخلوق تراجيدي بامتياز، يولد باكيا صارخا، وسط مشهد مقزز و بشع، ويرحل مشيعا بالنحيب والدموع، هذا إن أسعده الحظ بوجود من يحزن لفراقه أصلا، وبين اللحظتين ينفتح سجل عامر بالكبوات والأزمات والبلايا. وإذا كانت حياتي لا تكفيكم برهانا على ذلك، فهذا ابن عمي وتوأم روحي وائل، مازال على الأرض، ولعلنا نلتقي عندما يحين أجله. سأقص عليكم من حياته طرفا يا إخوان، ربما تصدقوني عندها.

كنت أنا وهو أكثر من شقيقين، ولدنا في عز الصيف، خلال الأسبوع نفسه، أواخر شهر رمضان، فاحتفل أهلنا بنا وبالعيد معا، وامتلأت عمارة حدائق القبة بالزغاريد والأفراح. سرنا إلى المدرسة يدا في يد، وعاكسنا البنات معا، وحتى انحيازي للزمالك وتحمسه للأهلي لم يعكر علينا صفو صداقتنا وأخوتنا. كان هو القائد في معارك الشارع وغزوات الجنس الآخر وكنت أنا القائد في معارك الدرس والامتحانات. يمكنكم القول إننا صرنا معا مخلوقا واحدا عجيبا، يكمل بعضه البعض، يخشاه الجميع للوهلة الأولى، ثم يمنحونه عواطفهم بلا تردد، إذ يألفونه. أتبعه إلى صالة الألعاب وكمال الأجسام، وسرعان ما أهجره هناك، ساخرا من عبث بناء جسم كتب عليه الفناء. يتبعني إلى قصر الثقافة، وسرعان ما يهجرني هناك، ساخرا من شلة الفنانين المجانين وكلامهم العجيب. لكن بقيت لنا المقهى، تجمعنا وأصحاب كل منا. شق طريقه في عالم النساء بجناحين من حرير، بينما كنت أتعثر أنا في ثنايا الهوى العذري وأبيات الغزل العفيف. تخرجت من كلية الآداب، قسم علم النفس، وبعدها بعامين تخرج من كلية التربية، قسم تربية رياضية، وفتح لنا المستقبل ذراعيه، ولم نكن مضطرين، لا أنا ولا وائل للعمل، نظرا لحال العائلة الميسور، وتجارتها المتوسعة للحوم المجمدة، التي راحت تنتشر فروعها في كل منطقة بمصر. وظهرت أطياف الزواج، والعرائس المرشحات، مثل مرايا صغيرة تقتنص نور الشمس وتعشي البصر. لكن المأساة لا أهملتني ولا أهملته، وكفاها ما أمهلتنا، نحن الاثنين، من صبا رائق و شباب سعيد.

منذ المرحلة الثانوية كان على وائل أن يضع نظارة لضعف بصره، ولشد ما ضايقه هذا هو الرياضي النشط صياد البنات، وما أن تخرج حتى أزمع تركيب العدسات اللاصقة، غير إنه سمع عن عملية الليزر التي لن يحتاج بعدها إلى نظارة أو عدسات. وكثيرا ما تذكر ، فيما بعد وقوع البلوى، وجه الطبيبة الشابة التي أخبرته أن نسبة السكر لديه غير مطمئنة، وأن العملية سيكون فيها بعض المجازفة، لأنه تقريبا مرشح محتمل جدا لمرض السكر. لم يكن وائل قد شعر بأعراض مرض السكر من قبل، لذلك لم يعرها اهتماما، وتوجه من فوره إلى الطبيب المسئول عن إجراء العملية بالمستشفى الشهير،

عرض عليه رأي الطبيبة، فأخبره أن لا أهمية لذلك وأن مخاوفها لا أساس لها، مادام وائل عمليا غير مريض بالسكري. هكذا قالها: السكري، فوثق به وائل، ونفض عنه كلام الطبيبة التي هي في النهاية شابة تفتقد للخبرة. توكل على الله وأجرى العملية، وما هو إلا أسبوع حتى انطفأت عيناه تدريجيا، تحول لونهما الأخضر الزاهي إلى لون الرماد الكابي، ودخل عالم الظلام بعد أربعة وعشرين عاما من البصر والنور وحب الحياة بألوانها ومفاتنها. جرى ذلك في الأيام نفسها التي كنت أعيش فيها تفاصيل قصة حبي البائس لأرملة خالي الشابة، القصة التي حكيتها لكم من قبل. وتقدرون الآن بالطبع أن ما حدث له، تتضاءل بجواره جميع مآسي الحب و مواجعه، التي تولد عملاقة لا قبل لنا بالسيطرة عليها، ثم تذوب حتى تختفي تماما مع الأيام.

في الأسابيع الأولى، بدا وكأنه لم يخسر شيئا، ولم يتبدل شيء في حياته، وكأنه سوف يستيقظ في نهار اليوم التالي مبصرا كما كان دوما، خاب أمله وأكد له جميع الأطباء أن لا أمل في عودة النور إلي عينيه. وعندما فاتحته في رفع قضية على المستشفى والمطالبة بتعويض كبير، سألني بابتسامة مريرة: "تعويض؟ تعويض عن إيه؟"، فأدركت حينها أنني أنا المبصر الذي يتحدث إليه هو الضرير!

دفنت نفسي في الكتب كالعادة، جاءتني وظيفة مدرس فقبلتها بلا تردد لكي أجد مبررا للابتعاد عن تجارة اللحوم المجمدة، وكل هذا الصداع. أما وائل، فظل شهورا يعاند إعاقته الجديدة والمفاجئة، ويقتحم عالم الظلام بفتحة صدر جسور. التحق بمعهد للمكفوفين، وعكف على تعلم طريقة برايل للقراءة، حتى المشي أخذ يتعلمه من أول وجديد. وفي فناء ذلك المعهد، رأيته ذات يوم يتحدى شخصا مبصرا و يراهنه على أن يسبقه في الجري، وحدث. لم يكن وائل يركض، بل كان يصارع بأطرافه الأربعة غولا أسود يلتف حوله من جميع الجهات، شعرت أنه يحاول اختراق ذلك الجدار الذي يحول بينه و بين الدنيا كما خبرها طويلا. وسبق ابن عمي الأعمى الرجل المبصر، لكنه لم يستطع هزيمة عماه، وابتلعته الظلمة تدريجيا. أسابيع قليلة ومل المعهد، بمدرسيه

ومكفوفيه، وأخفق في تعلم أي شيء يجدر بالأعمى تعلمه. والتزم المنزل، لا يبارح غرفته إلا نادرا. بل وأعرب عن عدم رغبته في أن يرى – أقصد يقابل – أي شخص، حتى أنا.

عولت على الوقت، الذي يداوي كما يجرح. وانهمكت في التحضير للدراسات العليا. أمر بشقتهم، في الطابق الثالث بين الحين والآخر، لعل وعسى، ولا ألقى غير الصد نفسه والعناد المرير نفسه. والحق أنني أنا أيضا كنت بحاجة إلى سند من أي نوع. وقد رويت لكم من قبل كيف أجبرها أشقاؤها الصعايدة، بعد أن سمعوا بحكايتنا معا، على السفر إلى الصعيد و البقاء هناك.

مات أبي، بأزمة قلبية، فجأة، دون مرض أو اعتلال ولو هين. ورحبت بالحزن الكبير، رغم صدمتي، عله يطوي الأحزان الصغيرة الكثيرة في عباءته. وأخيرا ظهر وائل، لضرورة القيام بالواجب، وفاجأني تغيره، ترهل القوام الممشوق و صار له كرش و أرداف مثل الأغوات، كما كان يطلق هو نفسه على البدناء من الرجال، قبل محنته، وقد غطى عينيه الميتتين بنظارة سوداء، واصطبغ صوته برنين سخرية مريرة، حتى عند تحدثه بأكثر العبارات وقارا وعقلا. وبعد أن انقضت طقوس المأتم والعزاء، عاد إلي وإلى سهرنا معا، عندي أولا، ثم في تكعيبة السطح بعد ذلك. وفاجأني بالحشيش، الذى كان يجد طريقه حتى باب غرفته، يوميا تقريبا، في جو من التواطؤ وسط والديه وأشقائه. بالنسبة لي، كانت تجربتي الأولى، وعندما بدأت أهذي ببعض أبيات الشعر العربى القديم ضحك أخيرا، فانتبهت لضحكته، واحتضنته وبكيت أبى أخيرا، وبكيت حبيتي حبيسة الجهل، وكل الوعود المتألقة التى خدعتنا بها الدنيا.

كان تعليق وائل الوحيد، بيني و بينه، على موت أبي أن عدد من يعرف وجوههم يتناقص تدريجيا، في حين أن عدد من يجهل شكلهم في تزايد مستمر، وهم من الأطفال الذين يولدون كل يوم تقريبا في بيوت العائلة. كان هذا مرعبا بالنسبة له.

" مالها النضارة؟ ما أنا كنت بأشوف بيها زي الإكس!؟ "

واظبنا على سهرة شبه يومية، في تكعيبة السطح، أصعد بعد تناول العشاء فأجده، أو أنتظره حتى يصعد. وحدثني لأول مرة عن جمالات، البنت التي استعانت بها أمه لتعتني بشؤونه. كنت قد لمحتها مرة أو اثنتين، فأعجبت بسمرتها الغامقة، و ملامحها المنمنمة مثل النوبيات. قال إنه في البداية رفضها، وتصرف وكأنها غير موجودة، بل وكثيرا ما أهانها وسبها لو عرضت عليه المساعدة، دون أن يطلب منها شيئا. لكنها صبرت عليه، وعاندته بصمت، بل وتجاهلته هي الأخرى، وراحت تهمله تماما، وتجيب باقتضاب شديد على أسئلته، فاغتاظ، وأخذ يرهقها بالمهام المفتعلة، ويوبخها بسبب أو بدونه، ويكثر من الأوامر المتناقضة أحيانا، وقابلت هذا كله بجلد عنيد دون أي تذمر. إلى أن أمرها بقراءة الجريدة، من أولها إلى آخرها، كل يوم، ففعلت، وعندئذ اكتشف صوتها الذي حمل له في عزلته السوداء صورة واضحة عن وجهها وجسدها، كاملين بلا انتقاص.

قاده صوت جمالات إلى عالم الأصوات بكامله، وصادق برامج الإذاعة، حتى أدمنها، أو بعضها على الأقل. وراح يتحدث في سهرات السطح عن الموسيقى والغناء وتمثيليات الراديو، وكما توقعت سرعان ما أعلن نيته في خطبة جمالات.

جمالات الجميلة، التي انفجرت فيها أنبوبة البوتاجاز، قبل الزفاف بأيام، فاحترقت وماتت، أترونها؟ تلك التي تجلس هناك. كل هذا ولا تريدون أن تصدقوني. وتأخذون علي انتحاري. ما الحياة، هناك، على الأرض، غير شقاء وعناء وكبد؟

كثيرا ما أتساءل تُرى كيف يقضي الآن ابن عمي وائل بقية أيام حياته؟ إنه الآن، في الخامسة و الأربعين، تقريبا. فهل تجاوز محنة جمالات، كما تجاوز محنة كف بصره؟ كم أرجو، رغم كل شيء، أن يكون مازال سابحا في مملكة الأصوات التي اكتشفها، مكللا يأسه بتاج من دخان الحشيش.

ديسمبر

كل ما أتذكره الآن أننا كنا نحتفل بليلة رأس السنة، كما هي العادة في النادي اليوناني بوسط البلد، عندما اقتحم المكان أحد الفتوات القدامى و معه عصابته، فقتلوا زوجي المسكين و بعض أصدقائنا ثم اختطفوني. بالطبع كنت أستغيث و أصرخ بلا فائدة. ضاع صوتي وسط إعصار الصخب الدائر في الشوارع و أمواج الحشود الهائجة، ليظهر أنني في مظاهرة تضم آلاف العمال و الفلاحين و الطلاب. إنها الثورة أخيرا ! و في طريق موكب الفتوة إلى القاهرة القديمة كان عدد الرجال يتناقص لدى كل ناصية ، يمضي واحد أو اثنان منهم في هدوء و بلا تحية. و سرعان ما تحولت الآلاف المؤلفة إلى آلاف غير مؤلفة، ثم إلى بضع آلاف ثم إلى مئات ثم عشرات. لاحظوا أن العدد مسألة مركزية هنا، فاللحظة الحاسمة كما تعرفون جيدا هي عندما يتحول الكم إلى كيف. و طوال السكة لا يفارق عقلي سؤال رهيب، هل سيغتصبني الفتوة؟ أنا لا أريد أن أُغتصب. أعترف أنني اشتهيت أحيانا بعض

رجال أمن الدولة، و لكن هذه قصة أخرى. فإذا فعلها الفتوة معي سأجد نفسي مضطرة للرقاد مع الجميع، مع كل رجل له رغبة، سواء وجدته مثيرا أم لا، و سواء كان مؤمنا حقا بالثورة أم مجرد انتهازي حقير. صحيح، قد أشعر عند ذلك أمام كل هذا العدد من الرجال بالإشباع، بل و ربما بالتخمة، و إذا تحول الكم إلى كيف على هذا المستوى يقولون إن التطرف في الفعل الجنسي قد يصل بنا إلى حدود النشوة الصوفية. يقولون. طال الطريق إلى الحسينية، و العربة التي تجرها أربعة خيول تتهادى بين الأزقة شبه المعتمة. أنا مقيدة ذليلة تأكلني الأسئلة، و الفتوة يعتلي عرش قائد المركبة ، موليا لي ظهره الذي يكاد يحجب سماء الليلة الأولى من العام الجديد. و أجدني في قلب هذه المحنة العجيبة أتحدث إلى زميلتي صغيرة السن بالمجلة و أدعوها للانضمام إلينا. فما جدوى أن تصبح الواحدة منا أعظم صحافية في الدنيا، و نحن محاطون بمجتمع قذر و منحط، يلقي بملايين الناس إلى مستنقع الجوع و التخلف و المرض، و يقتلهم بالآلاف كل لحظة، بلا جريرة سوى فقرهم، لصالح حفنة من أصحاب الأموال. ألم تسألي نفسك من قبل عن معنى حياتك؟ انتبهي، انظري، إنهم يحاصرون المظاهرة من كل جانب تقريبا، ضباط أمن الدولة، صدقيني إنني أشفق عليهم كما تشفق أم على ابنها العاق، ما هم إلا أطفال كبروا في غفلة منهم، فجأة صاروا هكذا طولا و عرضا. انظري، إنهم يتلقون التعليمات عبر الهواتف المحمولة، ثم يصدرون الأوامر عبر أجهزة اللاسلكي، إنهم يتحدثون بهدوء و رباطة جأش، بشفاههم تلك الممتلئة البليلة بحمرتها الداكنة قليلا من التدخين بشراهة، شفاههم المرسومة بوضوح تحت شوارب فخورة بخشونتها، يتبخترون في ثيابهم الرسمية المحبوكة على أبدانهم ذات العضلات المتماسكة و أطرافهم المرنة على شدتها، طافحين بالذكورة و الغطرسة. يا الله! كنت أتخيله لوقت قريب رجلا عجوزا و قويا يستوي على عرشه بين السحاب. و العربة تتقدم، لا يتبقى سواي أنا و هو، و لست مقيدة و لا فمي مكمم و أستطيع لو أردت أن أصرخ أو ألوذ بالفرار، و لكن إلى أين أذهب؟ و لماذا ترفل الألوهة على الدوام في عباءة ذكر؟ من أنا و ماذا أفعل في هذه الأزقة؟ حب المرء لجلاده علامة لا لبس فيها على المرض النفسي الحاد. يا الله! كلا،

ليس حبا، بل مجرد اشتهاء، أو شغف بصري، انبهار بالهالة الأخاذة للهيبة و الجلال. يا الله! لقد أنكرت وجودك وقتا طويلا، و هاأنذا أجأ إليك و أحتمي بك و أستجير برحمتك و سلطانك، كأي امرأة جاحدة. كلا، لا أريد أن أغتصب من الفتوة. كلا، لا أرغب في التحول إلى واحدة منهن، مع كل احترامي للعاهرات الداعرات الساقطات الفاجرات الفاسقات المشتهيات الرخيصات المحرقات المهيجات المثيرات الشبقات المبتذلات المفتوحات المنتهكات المخترقات المقصيات المنبوذات الخاضعات الخانعات المدللات المرفهات الثمينات الغاليات المحروسات اللطيفات الساكنات الهادئات الحالمات الوادعات اللؤلؤات المصونات الشاهقات العاليات المرتفعات الطالعات النازلات الحائرات الدائرات الشائنات المرئيات المسموعات الشهيرات المرجوات المغتصبات الملقيات الفاتنات الساحرات المجلودات المرجومات المصلوبات المنسيات العاريات الكاسيات المرسومات المذكورات الحمراوات السمراوات البيضاوات الصفراوات السوداوات التائهات النداهات الحوريات الجاريات الواقفات الغانيات المضروبات المتورمات المقتولات النازفات المنتحرات المحروقات الرائدات المضربات الثوريات المتحررات المتعريات الرائعات الكانسات الماسحات الطابخات الفارشات القائمات القاعدات النائمات القارئات الكاتبات الراسمات الطالبات المبعدات المستهترات المتهتكات الخليعات الممارسات المتمرسات البائعات الفلاحات الزوجات العاملات الصانعات الشغالات الطفلات المراهقات المرهونات المخطوبات المتزوجات المطلقات المعلقات المباعات المعارات المستأجرات التلميذات المذهلات الشابات اليافعات الناضجات الشائخات المرهفات المطربات العالمات الشاعرات الناسجات الخابزات المربيات الفاضلات القديسات الربات الإلهات الصالحات العذراوات الواصلات العارفات الجاهلات الأميات المتعلمات الكائنات الموجودات الغائبات الحاضرات الملعونات الشيطانات العفريتات الجنيات البحريات البريات السافلات المفضوحات المتهمات المسجونات المعدومات الجائعات العظيمات الضعيفات الخائبات الدلالات الخاطبات الحفافات الكياسات الدايات المولدات الكوافيرات المدلكات المهذبات

الناجحات الفاشلات الفاشيات الكاتمات العمياوات الخرساوات القصيرات البدينات النحيفات المغنيات الراقصات العازفات المزلزلات الأمهات الأخوات العمات الخالات الصاحبات الرفيقات العشيقات الخليلات المحظيات البنات و الثيبات. وبقيت وحدي، ضاق الميدان الواسع وما المظاهرة الحاشدة إلا حفنة، والعدد مسألة حاسمة. ما المظاهرة الحاشدة إلا أنا، أرقص، مرتدية بدلة رقص قديمة الطراز، وفوق رأسي شمعدان مذهب. أهتز في كسل على أنغام أغنية قديمة جدا للمطربة التونسية حبيبة مسيكة مطلعها " و على سرير النوم دلعني " و من حولي حلقة رجال بالأبيض و الأسود ، شواربهم مبرومة و معاطفهم داكنة واقفين و في يد كل منهم عود خيزران . في المرآة من ورائهم ألمح نفسي ، الشموع التي على رأسي بعضها مطفأ و بعضها مازال مشتعلا. لكني لا أعرف على وجه التحديد عدد هذه و لا تلك. فحسب قصيدة صغيرة لرجل مات، فإن الشموع المطفأة ترمز إلى ما انقضى من سنوات عمرنا أو ما أشبعناه من رغبات, أما الأخرى المشتعلة فهي السنوات القادمة أو الرغبات التي لا تزال تتضور جوعا في أحشائنا. و على هذا فكأن الشموع المضيئة غير موجودة أصلا، عددها غير مؤكد بالمرة، افتراض، فكرة، أمل عنيد شأن الثورة المباركة. و من بين حلقة الرجال تخرج أمي بالحركة البطيئة، هي الآن شابة متوردة و إن كانت على بدانتها لا تزال، تمسك بمبخرة تطلق في الجو عرفا مسكرا و تهتز هي الأخرى بالحركة البطيئة. تستأذنهن، تمسك بيدي و تقودني نحو عمق الدار المبنية على الطراز المملوكي، نحو ما يبدو و كأنه جناح النوم لصاحب الدار و ولي نعمتي. مازال الشمعدان فوق رأسي و لكنني أتحرك بخفة سمكة في حوض سمك. تقول أمي بصوت هامس: " المعلم نائم الآن. لا تضيعي هذه الفرصة، اصنعي منه طفلا قبل أن يطلع النهار." و دخلت، و انتبهت أول ما انتبهت إلى جرمه الهائل المكوم على السجادة. بلا حراك و إن كان تنفسه واضحا مسموعا. بحثت عن مرآة و هرعت إليها. كانت كل الشموع الآن مطفأة. ليس لدي شمعة واحدة منورة. ليس لدي شيء.

أسلافنا

شبح أنطون تشيخوف

أغلب الظن أنهما التقيا في غرفة الانتظار، بإحدى العيادات. يجئ النحيل أولا، و يتخذ مجلسه، منتقيا مادة للقراءة، من بين ما يتناثر أمامه في أناقة. و بعد قليل، يدخل البدين، و ما إن تقع عيناه على الآخر حتى يهتف:

" غير معقول. مستحيل. أنت!؟ بعد كل هذه السنين! "

مصافحة وعناق حميم وقبلات من جانب البدين، ونظرة اندهاش وحرج على وجه النحيل، الذي ينحني شيئا ما نحو الآخر. ويتمتم:

" أهلا و سهلا يا أفندم!"

لا يمهله البدين، حيث يتراجع كالمهان، و يصيح:

" أفندم ! أنا أفندم؟ هكذا يا صاحبي؟ لا تتذكرني. صحيح أنك رجل قليل الأصل فعلا، أنا....و لكن كلا، علي الطلاق بالثلاثة من زوجتيّ الاثنتين لن أقول لك أي شيء قبل أن تتذكرني بنفسك. "

فيما عدا البدين و النحيل، هناك مجموعة من الشباب، يقفزون تباعا، من فوق جسر، يطل على هوة سحيقة، و هم مربوطون بحبال مطاطية، فيما يبدو، و في سقوطهم

يصرخون، فتجذب أصواتهم البدين، ما إن يجلس، فيشاهدهم بتركيز مبالغ فيه، معرضا عن النحيل، و راسما على وجهه أمارات غضب صبياني و عتاب. و الآخر لا ينظر نحو شاشة التليفزيون، بل نحو صاحبه القديم، المجهول حتى الآن، ينظر نحوه في رجاء أخرس، عاقدا حاجبيه، مقلبا جميع دفاتره القديمة بسرعة جنونية، دفاتر الخمسين عاما. يخيب مسعاه، فيبدأ مراجعة منهجية لذكرياته و معارف ماضيه، انطلاقا من الطفولة المبكرة، و يرى في ذلك شبها بما يقوم به مع الطبيب المنتظر، فيرحب بالعملية كتمرين. الثقة التي تحدث بها البدين منذ قليل توحي بعلاقة وثيقة، و غير قديمة العهد بالمرة، قرابة، نسب، زمالة، صداقة قطعتها الظروف، لكن متى و أين؟ هل قابله هنا من قبل؟ غير ممكن.

تقترب موظفة الاستقبال، الجميلة بطبيعة الحال، لتسجل بيانات كل منهما. اقترب الفرج، يفكر النحيل. ممكن أسجلها بنفسي، يطلب البدين. طبعا، توافق الموظفة جاهلة بكل شيء. تصر على أن يشربا شيئا، حتى يحضر الطبيب. يطلب البدين أي عصير طازج، عدا البرتقال و الليمون و الجوافة، و يطلب النحيل قهوة سادة، و يبدو كمن يعول على فنجان القهوة ذاك لمعاونته على التذكر.

على الشاشة، تتحدث واحدة من جماعة القافزين. تحكي كيف تعرفت بزوجها في معسكر للقفز مثل هذا، و أنهما تعهدا بمواصلة القفز من المرتفعات طوال حياتهما معا، إلى أن تفرقهما الأيام، أو تمنعهما عن القفز ظروف صحية. و راحت تشبه متعة الطيران و السقوط في الفراغ بلحظة الذروة الجنسية، ثم تراجعت لتصحح تشبيهها، كلا، بل ألف ذروة معا، مندمجة و مكثفة. و هنا يضحك البدين أولى ضحكاته التي تصيب وقار المكان في مقتل.

" يا سلام، يا سلام، ناس تعيش حياتها بصحيح! "

ثم:

" أموت أنا في النط في الهوا !"

ثم ضحكة مختصرة، مثل توقيع، " فورمة " مخطوفة ذات رنين. من جانبه، يحاول النحيل أن يتسمع أصداء هذه الضحكة بين زوايا أيامه البعيدة و القريبة. يحاول، بلا جدوى.

الفتى، أبيض ممتلئ الجسم و مائل للقصر، يضع المشروبات أمامهما، في حرص و دربة. يخرج البدين علبة سجائره، معدنية ذات بريق ذهبي. يقدم واحدة للفتى، يتناولها بعد تردد لا يطول. يشعل البدين سيجارته. يلتفت الفتى نصف التفاتة، قبل أن يذهب، يهمس:

" على فكرة، التدخين ممنوع!"

و يبتسم، مما يمنح البدين فرصة جديدة ليربك وقار المكان و يوهن من أعصاب النحيل أكثر، بضحكة أخرى ذات رنين:

" يخرب عقلك يا ولد! ما أنا عارف!"

ينسحب الفتى، محتفظا بابتسامته. و يقول البدين، في نبرة حازمة لصاحبه القديم:

" طبعا أنت لا تدخن.."

" صحيح ولكن كيف..."

" لن أقول كلمة، أم تريد أن ينخرب بيتي وأُطلق المرأتين؟ "

البدين في دورة المياه، النحيل وحده، يشعر براحة عظيمة، لا يدري لماذا، و يتساءل عن سر شعوره بالذنب، لمجرد أنه لم يتعرف على شخص مر بحياته ذات يوم. يحنق على نفسه، لكنه يحنق على البدين أكثر. يقرر التوقف عن محاولة التذكر، و عن استرضاء هذا البدين كذلك. يتناول النحيل إحدى المجلات، غير الطبية، و يشرع في القراءة...يستغرق في سطورها و صورها، وكأنه سيجد فيها مصيره الخاص.

تمر بجانبهما الموظفة، فيستوقفها النحيل:

" من فضلك، هل سيتأخر الدكتور أكثر من هذا؟ نحن هنا منذ نصف ساعة تقريبا. "

ترفع حاجبا واحدا، تتحدث ببطء، و بضغط على مخارج الحروف، و كأنها تعلم الكلام لطفل معاق:

" الدكتور لم يتأخر. لقد أتيتما مبكرين عن الموعد بساعة تقريبا."

يتدخل البدين:

" لكن الوقت تغير. بدأ التوقيت الصيفي منذ يومين"

تجيب على الفور، و مازال الحاجب مرفوعا:

" و لو ! الموعد كما هو ..."

البدين:

"كنت أمزح يا آنسة...آنسة أم مدام؟ "

تتجاهله:

" على العموم الدكتور يحاضر في ندوة بالقرب من هنا، و سيأتي بعد قليل..بعد إذنكما."

أنزلت حاجبها ثم مضت، و قبل أن تختفي تماما، بدأ البدين في محاكاة صوتها و أسلوبها:

" الدكتور يحاضر في ندوة عن مضاجعة الممرضات و موظفات الاستقبال بين كل كشفين، و سيأتي بعد قليل ليبرهن معي على صدق نظرياته..بعد إذنكما لأعد نفسي.."

و تتفجر ضحكاته بلا رادع.

النحيل:

" " اخفض صوتك، أرجوك.."

البدين:

" أراهن على أنه يقلبها هنا فوق هذه الأريكة!"

النحيل متوسلا:

" صوتك، أرجوك!"

البدين:

" أو في غرفة الكشف، و المرضى المساكين ينتظرون. "

يرفع الفتى الأكواب. يسأله البدين في تواطؤ:

" ما مشكلتها هذه البنت؟ "

" مسكينة يا بيه، عقلها خف من العمل هنا!"

" شفى الله الجميع، و أنت؟ ما أخبار عقلك ؟ "

" الحمد لله، أتيت إلى هنا مضبوط جاهز."

ضحكات البدين من جديد.

النحيف معتصم بالقراءة، لكن البدين يجره من عزلته و كأنما يطيب خاطره.

" هل تتردد على هذا الطبيب منذ فترة؟ "

" هذه هي الزيارة الثالثة. "

" هذه أول مرة بالنسبة لي. سمعت أنه عبقري، أو بالأصح مجنون قليلا. "

" لا سمح الله! الرجل كله عقل. "

" و هل هي مسبة. الحقيقة أنني أميل للأطباء المجانين. تشعر معهم و كأنك في بيتك، تكون هناك أرضية مشتركة بينكما...و لكن قل لي، بالنسبة لحالتك هل تشعر بتحسن؟ "

" لا أدري. أحيانا أشعر أن حالتي تتحسن فعلا، و أحيانا أخرى يهيأ لي أن شيئا لم يتغير، و أن المسألة كلها أوهام في أوهام. "

" الله! أخيرا قلت شيئا جميلا؛ أوهام في أوهام. ذكرتني بالأيام القديمة يا أخي..."

" بالمناسبة أنا ذاكرتي لا بأس بها، و لا أدري كيف نسيتك تماما هكذا.."

" إنه سوء حظي. رغم أنني شخص لا ينسى. "

" دون شك. "

" لكنك كنت تستطيع على الأقل أن تلفق لنا ذكريات مشتركة. "

" ألفق، كيف؟ "

" توهمني بأنك تتذكر، و تذكر مثلا موقفا لم يقع بيننا قط، و قد أتجاوب معك عندها و أكمل لك الحكاية من عندي. لا بأس في بعض الخيال. "

" و الله ما أنا فاهم حاجة. "

" هذا أحسن!"

" و أنت؟ "

" أنا، أنا جربت كل شيء، و لم أعد أؤمن بشيء تقريبا. هذا باختصار شديد جدا. صار الأمر بالنسبة لي عادة لا أكثر و لا أقل، غير أنني لا أتوقف عن ملاحقة الأطباء المجانين و غريبي الأطوار، صرت مدمنا على هذا، مثل المهووسين بجمع الطوابع أو القوارير أو صور أحد المشاهير. "

" تقصد أنك بدأت تتسلى بمرضك!"

" بالضبط، ها قد بدأت تفهمني و تسترد ذكرياتنا القديمة معا، كم أتوق لصاحبي الذي كان. "

" بصرف النظر عن أيامنا القديمة، ألا ترى أن في هذا شيء من الخطورة؟ "

" بمعنى..."

" أي أن تسليتك بمرضك تصير تسليما به، بل و اعتيادا له بحيث لا ترغب بجدية في الشفاء منه..."

" إنني أرى العكس، فهكذا أنزع أنياب المرض، و أتلاعب به، بدلا من أن يتلاعب هو بي. البطل هو من لا يرى في معاناته إلا المغامرة و اللهو. لست بطلا، و لكن...هذا مما تعلمته على يد دكتور إيسا. "

" دكتور من ؟ "

" إنه طبيب نفسي هندي أمريكي، كان يتابع حالتي بالمراسلة، عن طريق الإيميل."

" و هل هو أيضا مجنون، عبقري يعني؟ "

" إنه الأعظم على الإطلاق. دخلت معه إلى عالم اليوجا و التأمل و عرفت الصفاء الروحي، و لو للحظات مختلسة من الزمان. "

" و لماذا لم يتم الله شفائك على يديه؟ "

" لقد مات. "

يبدأ البدين في البكاء فجأة.

يصل انتباه النحيل لأقصى درجة، يتزحزح حتى حافة مقعده، متجهم الوجه، تجاوبا مع البؤس الذي اكتسى به وجه صاحبه، و الدموع التي تترقرق بين عينيه، مازال وجهه ورديا و ناعما و مكورا، لكنه تحول من وجه المهرج إلى وجه العجوز المهدم الضائع.

" انفجرت طائرته قبل خمسة أعوام، ليتركني وحيدا، في هذه الدنيا، بلا سند. شعرت باليتم لأول مرة في حياتي، و عاودني الاكتئاب، وعدت إلى الشراهة في الطعام و الجنس و كل شيء. ثم حاولت الانتحار مرة بعد مرة..."

تصير دموعه أغزر و أسرع تدفقا. و يتحول البكاء بغتة إلى نحيب و نشيج موقعين. لا يجد النحيل مفرا من النهوض، للجلوس بقربه لتهدئته.

" وحد الله! وحد الله!"

" لا إله إلا الله!"

يرتمي البدين برأسه على صدر النحيل، مستريحا بنصف جسده العلوي تماما عليه، و يمعن في البكاء و العواء مثل رضيع جائع. و هنا تدخل الموظفة، و ترفع حاجباها الاثنين هذه المرة. وسط دموعه، يراها البدين، فيتعالى صوت بكائه بحرقة أشد، كما لو أنه رأى المرأة الشريرة التي ضربته منذ قليل، و يرغب في أن يؤكد لأمه، ببكائه الأخرس، أنها هي، هي المجرمة. لكن أمه، النحيل، يزيحه مبتعدا قليلا، تاركا يده فقط تربت على كتف البدين بآلية، و كأنها تتصرف بمعزل عنه، موجها نظره للموظفة.

" وصل الدكتور. تفضل حضرتك. "

فيصرخ البدين، و دموعه لم تتوقف بعد:

" لكنني لن أحتمل الانتظار أكثر من هذا....أرجوك، أرجوكِ، لن أحتمل..أريد الطبيب حالا...آآآآآآه.....الله يرحمك يا دكتور إيسا ..."

تؤثر الموظفة أن تترك لهما الاختيار، فتمضي بلا مبالاة، بعد أن تقول:

" اتفقا معا، و لكن بسرعة. "

هنا يبتعد البدين، عن النحيل، و يسمح عينيه بسرعة، و ينظر نحو الآخر ضارعا و لكن حازما مع هذا.

النحيل ينتظر، وحده. على شاشة التليفزيون الآن برنامج عن علاقة الكلاب بأصحابها. كل دقيقتين أو ثلاث ينظر نحو ساعة يده. ثم يقرأ فقرة من أي موضوع. و إذ تلفت كلمة الصبر اهتمامه، يقرأ (تحكي القصة عن شخص يريد الخروج من القرن العشرين، فيعرف أن هناك وكالة سفريات تنقل الناس إلى يوطوبيا تدعى فيرنا، في عوالم أخرى موازية، فيدفع شارلي– و هو اسم البطل – جميع أمواله لوكالة السفريات....) ذلك الرجل البدين حالة غريبة جدا، يضحك فجأة و يبكي فجأة. مسكين. و يتفوه بكلام فاحش. كيف لا يذكره على الإطلاق؟ من المستحيل نسيان شخص كهذا. (تقوم وكالة السفريات بوضع شارلي و رفاقه من المسافرين في جرن قمح بمنطقة نائية، و يقال لهم إن عليهم الانتظار في صبر.) هو أيضا عليه الانتظار في صبر. هذا هو الاختبار الحقيقي، الاختبار نفسه على الدوام. في انتظار شيء ما، على الدوام. ترى ما الذي يحدث الآن، بالداخل، في غرفة الطبيب؟ (و بعد انتظار طويل جدا و ممل، يقتنع شارلي أنه و من معه قد وقعوا ضحايا لبعض النصابين، الذين استولوا على أموالهم، فيخرج من الجرن و هو ممتعض.) ماذا لو كان البدين يسخر منه، و يتلاعب به؟ هل هو أيضا وقع ضحية بهلوان أفاق؟ كيف انطلت عليه كذبة حقيرة و تافهة كتلك؟ عوالم موازية! ما معنى هذا؟ (و ما إن يبتعد شارلي قليلا عن الجرن، حتى يتحول المكان كله إلى تلك اليوطوبيا الموعودة، يدرك خطأه ويحاول جاهدا الرجوع، بلا فائدة، لأن أوان ذلك قد فات. و فهم عندها أن الانتظار الطويل والممل كان هو الاختبار، من أجل فصل غير المؤمنين، الذين شاركوا في صنع حضارة نفاد الصبر.)

" أرجوك، في المرة القادمة حاول أن تتذكرني. "

" لا تقلق، سأتذكرك على الفور. "

